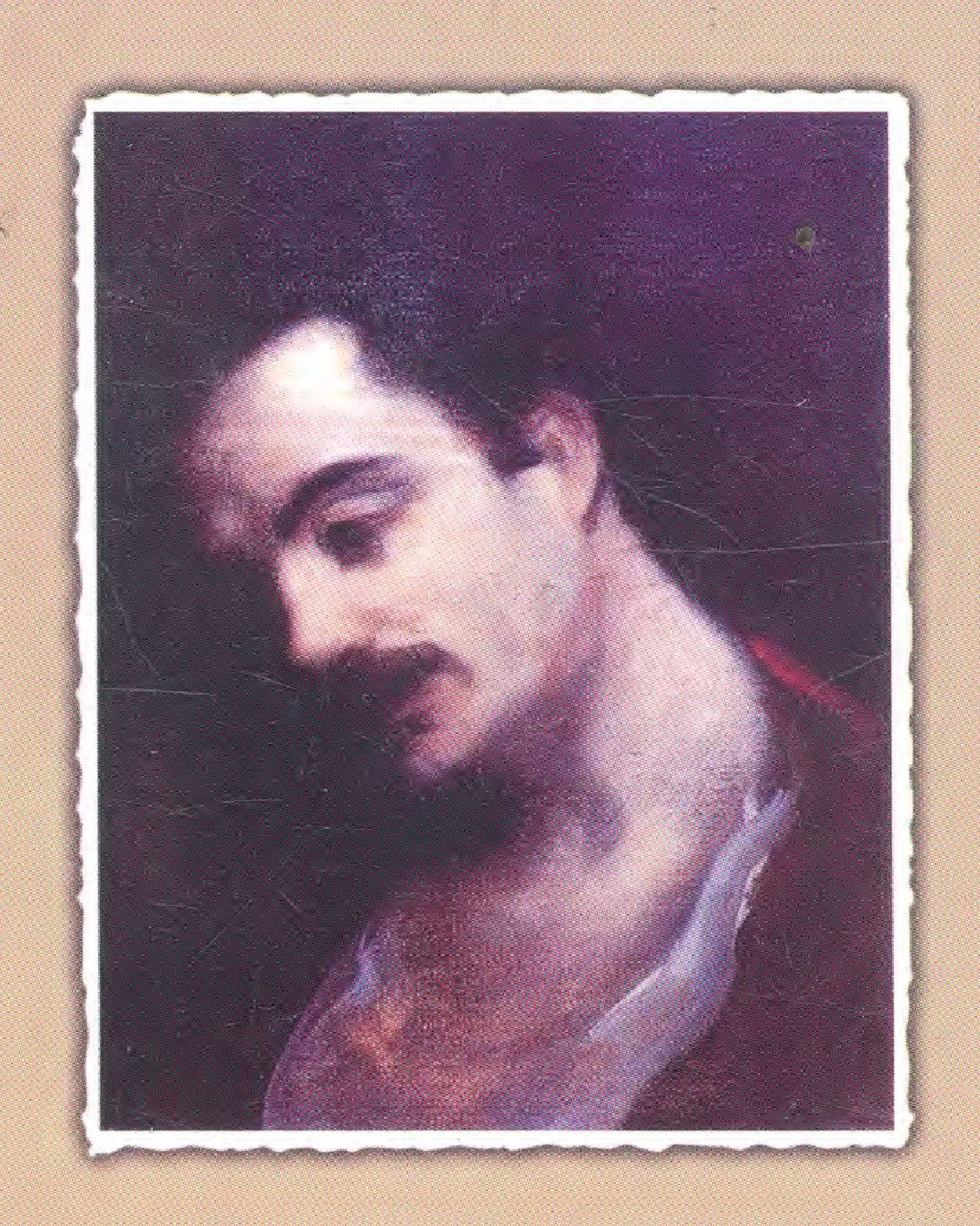
جبران خليل جبران

التائه
آلهة الأرض



دار البستاني للنشر والتوزيع

تأسست عام ١٩٠٠

التائه

و

آلهة الأرض

الكتاب : التائه - آلهة الأرض
المؤلف : جبران خليل جبران
الناشر : دار البستاني للنشر والتوزيع
٢٩ شارع الفجالة ١١٢٧١ القاهرة - مصر
٤ شارع على توفيق شوشة - مدينة نصر - ١١٣٧١
هاتف: ٢٥٩٠٨٠٢٥ / ٢٥٩١٥٣١٥ فاكس: ٢٢٦٢٣٠٨٥
Email : boustany@boustanys.com
Web site: www.boustanys.com
١٢٨ ص ، ٢٠ سم
١- الأدب العربي - مجموعات
٨١٠,٨
المطبعة : دار نوبار للطباعة
رقـم الإيداع : ٢٠٠٨/١٩٠٨٩
الترقيـم الدولي : I.S.B.N. 978-977-450-015-2

التائه

جبران خليل جبران



التائـه

لقيته على مفترق الطرق، وكان رجلاً معدمًا لا يملك سوى ثوبه وعكازه، تعلو محياه مسحة ألم عميق. وحيّا كلٌ منا الآخر، وقلت له: "تعال إلى منزلي وكن ضيفي."

وقبل الدعوة...

واستقبلتنا زوجتي مع أولادي على عتبة البيت، فابتسم لهم ورحّبوا من جانبهم بمقدمه.

ثم جلسنا جميعًا إلى المائدة، وكنا في غبطةٍ من لقاء هذا الرجل الذي يكتنفه الغموض، ويهيمن الصمت في سريرته.

واجتمعنا بعد العشاء حول النار، ورحت أسأله عن جوّلانه.

وقصّ علينا أكثر من قصة في تلك الليلة، وفي اليوم الذي تلاها. غير أن ما أرويه الآن، إنما هو زبدة ما كابد في أيامه من مرارة، وإن كان هو نفسه أثناء سرده لطيفًا، قريبًا من القلب. وهذه الحكايات أثر من غبار طريقه، وبعضٌ من نتاج المشقة التي كابدها وتحملها.

وعندما تركنا، بعد ثلاثة أيام، لم نشعر أن ضيفًا رحل عنّا، بل واحدًا منا لا يزال خارج المنزل في الحديقة، ولمّا يدخل.

ملابس

تلاقى الجمال والقبح ذات يوم على شاطئ البحر. فقال كل منهما للآخر: "هل لك أن تسبح؟"

ثم خلعا ملابسهما، وخاضا العباب. وبعد برهة عاد القبح إلى الشاطئ وارتدى ثياب الجمال، ومضى في سبيله.

وجاء الجمال أيضًا من البحر، ولم يجد لباسه، وخجل كل الخجل أن يكون عاريًا، ولذلك لبس رداء القبح، ومضى في سبيله.

ومنذ ذلك اليوم، والرجال والنساء يخطئون كلما تلاقوا في معرفة بعضهم البعض.

غير أن هنالك نفرًا ممن يتفرسون في وجه الجمال، ويعرفونه رغم ثيابه. وثمة نفر يعرفون وجه القبح، والثوب الذي يلبسه لا يخفيه عن أعينهم.

النسر والقبرة

تلاقى نسر وقبّرة على صخرة فوق ربوة عالية. قالت القبّرة: "طاب صباحك أيها السيد"، فنظر إليها النسر من عل، وقال بصوت خافت: "طاب صباحك."

وقالت القبرة: "أرجو أن يكون كل شئ على ما تروم، أيها السيد."

أجابها النسرُ: "أجل كل شئ على ما نروم. ولكن ألا تعلمين أنني ملك الطيور، وأنّه لا يجوز لك أن تخاطبينا قبل أن نبدأكِ بالكلام؟"

قالت القبّرة: "يلوح لي أننا من الأسرة نفسها."

نظر إليها النسر بازدراء وقال: "من هو هذا الذي قال إني وإياك من أسرة واحدة؟"

أجابت القبرة: "ولكني أود أن أذكرك بهذا الأمر، وهو أن في مستطاعي أن أطير في العلاء كما تعلو، وفي مستطاعي أن أغني وأدخل الفرح على قلوب المخلوقات الأخرى من أبناء الأرض، ولا تملك أنت أن تقدم لها فرحًا ولا متعة."

عند ذاك غضب النسر وقال: "فرح ومتعة! أنت أيتها المخلوقة الصغيرة المدعية! إني لقادر على تحطيمك بنقرةٍ واحدةٍ من منقاري، وما أنت إلا بحجم قدمي."

فما كان من القبرة إلا أن ارتمت على ظهر النسر وأخذت تنقر ريشه. وأحس النسر بضيق وانزعاج، وطار بقوة وارتفع ما استطاع الارتفاع وقد أضمر أن يُلقي القبرة عن ظهره، ولكنه أخفق في ذلك. وأخيرًا انطرح على الصخرة العالية ذاتها التي طار عنها، وهو أشد ما يكون غيظًا وحنقًا، ولم تفارق القبرة الصغيرة ظهره، وراح يلعن تلك الساعة وما قُدّر له فيها.

واقتربت منه في تلك اللحظة سلحفاة صغيرة، واستغرقت في الضحك من المنظر، واستمرت تضحك حتى استلقت على ظهرها.

ونظر النسر من عليائه إلى السلحفاة وقال: "أنتِ أيتها المخلوقة البطيئة الحدباء، اللاصقة أبدًا بالأرض! مم تضحكين؟"

أجابت السلحفاة: "ذاك أني أراك تحولت إلى حصان، وقد ركبك طير صغير، غير أن الطير الصغير هو الأحسن."

فقال لها النسر: "انصرفي لشأنك. إنها قضية أسرة، بيني وبين أختي القبرة، ولا دخل لغريب فيها."

أغنية الحب

نظم شاعر مرةً أغنية حب، وكانت رائعة. وكتب عدة نسخ عنها وأرسلها إلى أصدقائه ومعارفه من الرجال والنساء على السواء، ولم ينس أن يرسلها حتى إلى امرأة شابة لم يسبق له أن شاهدها سوى مرةٍ واحدة، وكانت هذه تقيم وراء الجبال.

وجاءه رسول من قِبَل تلك الشابة، بعد يوم أو يومين، يحمل رسالة تقول له فيها: "دعني أؤكد لك أنني تأثرت تأثرًا عميقًا بأغنية الحب التي نظمتها لي. تعال الآن، وقابل والدي ووالدتي، وسنتخذ التدابير التي تقتضيها الخطبة."

وكتب الشاعر جواب الرسالة، وقال لها فيه: "لم تكن يا صديقتي سوى أغنية حب صدرت عن قلب شاعر، يغنيها كل رجلٍ لكل امرأة."

وكتبت إليه ثانية تقول: "أيها الكاذب الخبيث في كلماتك! سأقيم منذ اليوم إلى ساعة أجلي، على كراهية الشعراء جميعهم بسببك!"

دموع وضحكات

لقيت ضبع تمساحًا في العشية، على شاطئ النيل، واستوقف كل منهما الآخر وتبادلا التحية.

تكلمت الضبع وقالت: "كيف قضيت يومك، يا سيد؟"

أجابها التمساح قائلاً: "قضيته على أسوا حال، وإني لأبكي أحيانًا في أساي وعنائي، والكائنات من حولي تقول دائمًا: "ليست هذه سوى دموع التمساح." وهذا يجرحني إلى حد لا سبيل لوصفه."

قالت له الضبع عند ذاك: "تتحدّث عن أساك وعنائك، ولكن فكر فيّ أيضًا، ولو للحظة. إني لأحدّق إلى جمال العالم، وغرائبه ومعجزات بدائعه، وأضحك مستبشرة عن فرحٍ خالصٍ يفعم نفسي، كما النهار يضحك، غير أن أهل الأدغال يقولون: ليس هذا سوى ضحك الضبع."

في السوق

جاءت مرةً فتاةٌ من الريف إلى السوق، وكانت آية في الملاحة والظرف، يتوزع محياها الورد والزنبق، وشعرها بلون الغروب، والفجر يبتسم على شفتيها.

ولم تكد هذه المخلوقة الساحرة، الغريبة، تظهر، حتى أحدق بها الشبان ينشدون التعرّف إليها والتقرّب منها. هذا يود أن يراقصها، وذاك يريد أن يقسم الكعك على شرفها، وكلهم يبتغون تقبيل خدّها. ألم يكن ذلك سوقًا، بعد كل حساب؟

غير أن الفتاة أحست بصدمة وأصابها ذُعر وامتعاض، وحسبت السوء في سلوك الشبان، فزجرتهم، وبلغ بها الغيظ أن صفعت واحدًا أو اثنين منهم، على وجهه، ثم انصرفت في سبيلها لا تلوي على أحد.

وفيما هي تتجه عند المساء نحو بيتها الريفي، قالت في سرها: "إني لأشعر باشمئزاز، ما أقل أدب أولئك الرجال، وأحط أخلاقهم. هذا شيء لا يطاق، ولا يمكن الصبر عليه."

وانقضى عام كانت الفتاة الجميلة تفكر خلاله كثيرًا بالأسواق والرجال. ثم قدمت مرة ثانية إلى السوق ومحياها ورد وزنبق، وشعرها بلون الغروب والفجر على شفتيها يبتسم.

إلا أن الشبان كانوا ينظرون إليها، ويميلون عنها، وقضت نهارها ذاك وهي وحيدة، مبعدة، لا يتقرّب منها أحد. ولدى العشية عادت إلى منزلها وهي تصيح في سرها: "ما أقل أدب أولئك الشبان! إني لأشعر باشمئزاز لا يطاق، ولا يمكن الصبر عليه."

الأميرتان

كان في مدينة شواكيس أمير يحبه الناس كلهم من رجال ونساء وأولاد. وحتى بهائم الحقل كانت تألفه وتقبل عليه تحييه وتأنس بحضوره.

غير أن جميع الناس كانوا يقولون إن زوجته الأميرة لا تحبه، ويغلو بعضهم فيحسب أنها تكرهه.

وذات يوم، جاءت أميرة إحدى المدن المجاورة، تزور أميرة شواكيس، قالت أميرة شواكيس بحرارة وتحمس: "إني لأحسدك على سعادتك مع الأمير زوجك، وإن كانت قد مرت أعوام طوال على زواجكما أما أنا فإني أمقت زوجي. إنه ليس لي وحدي، وأنا في الحقيقة أتعس امرأة."

وجلستا تتحدثان، وساقهما الحديث إلى ذكر زوجيهما.

حدقت إليها الأميرة الزائرة وقالت: "الحقيقة يا صديقتي هي أنك تحبين زوجك. نعم! لا تزال لديك عاطفة جامحة نحوه لم تطلقيها بعد، وتلك في المرأة حياة كينبوع في بستان. ولكن واهًا لي ولزوجي فإننا لا ننطوي على أي عاطفة، سوى أن كلا منا يتحمل الآخر بصبر صامت. وأنتِ، وغيرك من الناس، تحسبون ذلك سعادة!"

وميض البرق

كان ذات يوم عاصف، أسقف مسيحي في كنيسته الكبرى، وجاءته امرأة غير مسيحية، ووقفت أمامه، وقالت: "لست مسيحية. هل لي أن أخلص من نار الجحيم؟"

حملق الأسقف في المرأة، وأجاب: "لا! ليس ثمة من خلاص إلا لأولئك الذين تعمدوا بالماء والروح."

وفيما هو يتكلم انقضت من السماء صاعقة على الكنيسة الكبرى، ودوى الرعد، واندلعت النار في الكنيسة وملأت أرجاءَها.

وأقبل رجال المدينة مسرعين، وخلصوا المرأة، ولكن الأسقف كان قد احترق، وقضى طعمًا للنار.

الراهب والوحوش

كان راهب يعيش مرة وسط الروابي الخضر، وكان نقي الروح، أبيض القلب، وكانت جميع بهائم البر وطيور الجو تأتيه أزواجًا، فيكلمها وهي تصغي إليه مسرورة مستبشرة، وبودها أن تتقرب منه، وأن تبقى حتى مغرب الشمس معه، ولكنه كان يصرفها عنه، ويتركها للريح والغابات بعد أن يلقي عليها بركته.

وفيما كان يتكلم ذات أصيلٍ عن الحب، رفعت فهدةٌ رأسها وقالت للراهب: "تكلمنا عن الحب. حدثنا أيها السيد عن رفيقة حياتك، أين هي؟"

قال الراهب: "ليس لي رفيقة حياة."

وارتفعت عند ذاك صيحة دهشة كبرى من جمهرة الوحوش والطيور، وراحوا يتهامسون فيما بينهم: "كيف يستطيع أن يحدثنا حديث الألفة والحب، في وقتٍ لا يعرف به شيئًا عنهما؟" وانسلّ جمعهم بهدوء، وتركوه وحيدًا، وهم له مزدرون.

وانطرح الراهب عشية ذلك النهار على حصيرته، وعيناه في الأرض، وبكى بكاء مرًا، وضرب بيديه على صدره.

النبي والغلام

لقي النبي "شاريا" ذات يوم غلامًا في حديقة، ومذ بصر به هذا، أسرع إليه وقال: "طاب صباحك يا سيدا!" ورد النبي تحيته: "طاب صباحك يا سيدا!" وتابع الكلام بعد قليل: "أراك وحيدًا."

أجابه الغلام، ضاحكًا فرحًا: "لقد مضى عليّ وقت طويل وأنا ضائع عن مربّيتي، وهي تحسب أني وراء هذه الوشائع[1]. ولكن ألا ترى أنني هنا؟" ثم حدق إلى وجه النبي وقال: "أنت أيضًا وحيد. ماذا فعلت مع مربيتك؟"

ورد النبي قائلاً: "ها! الأمر بيننا مختلف. الحقيقة الدامغة أنني لا أستطيع أن أضيعها أغلب الأحيان. ولكني الآن، إذ أتيت هذه الحديقة، كانت هي تسعى في طلبي وراء الوشائع."

ضرب الغلام يدًا بيد وصاح: "أنت إذن ضائع مثلي. أليس حسنًا أن يكون الإنسان ضائعًا؟" ثم قال: "من أنت؟"

---

[1] الوشائع، جمع وشيعة: وهي حظيرة الشجر حول الكرم والبستان.

أجابه الرجل: "يدعونني النبي شاريا. وأنت؟ قل لي من أنت؟"

قال الغلام: "أنا ذاتي وحدها. ومربيتي تبحث عني، وهي لا تعرف أين أنا."

وحدق النبيّ إلى الفضاء قائلاً: "أنا أيضًا تهربت من مربيتي لبرهة، ولكنها ستعثر عليّ خارجًا."

وقال الغلام: "وأنا أعرف أن مربيتي ستجدني خارجًا أيضًا."

وسُمِعَ في تلك اللحظة صوت امرأة تنادي الغلام باسمه، فقال هذا: "أنظر! قلت لك إنها ستجدني."

وفي تلك اللحظة أيضًا سمع صوت آخر يقول: "أين أنت يا شاريا؟"

وقال النبيّ: "أنظر يا ولدي! لقد وجدوني أيضًا."

وأدار شاريا وجهه للعلاء، وأجاب: "أنا هنا."

اللؤلؤة

قالت محارة لمحارةٍ تجاورها: "إن بي ألمًا جد عظيم في داخلي. إنه ثقيل ومستدير، وأنا معه في بلاء وعناء."

وردت المحارة الأخرى بانشراح فيه استعلاء: "الحمد للسماوات والبحار. لا أشعر في سرّي بأي ألم. أنا بخيرٍ وعافية داخلاً وخارجًا."

ومر في تلك اللحظة سرطان مائي، وسمع المحارتين وهما تتساقطان الحديث، وقال للتي هي بخير وعافية داخلاً وخارجًا: "نعم! أنت بخير وعافية. ولكن الألم الذي تحمله جارتك في داخلها، إنما هو لؤلؤة ذات جمالٍ لا حد له."

جسد وروح

جلس رجل وامرأة بجانب شباكٍ يطل على الربيع، وكانت جلستهما تجعلهما جد متقاربين، فقالت المرأة: "أنا أحبك. أنت جميل، وغني، وأنت أبدًا ودائمًا على جانب كبيرٍ من الجاذبية."

وقال الرجل: "وأنا أحبكِ. أنت فكرة جميلة، بل أنت شيء تسامى عن أن تناله يد. أنت أغنية في حلمي!"

غير أن المرأة أدارت وجهها عنه وانفتلت غاضبةً وقالت: "أرجوك أيها السيد أن تفارقني منذ اللحظة، فأنا لست فكرة، ولا شيئًا يطوف بك في أحلامك. أنا امرأة وأود أن تشتاق إلي، أن تشتهيني. أنا زوجة وأم لأطفالٍ لم يولدوا بعد."

وافترقا...

وقال الرجل في سرّه: "ها هو ذا حلم آخر تبدد منذ الآن، وتحول إلى ضباب."

وقالت المرأة، وهي تتأمل وحيدة: "ما لي ولرجل يحولني إلى ضبابٍ وحلم؟"

الملك

أحاط شعب مملكة صادق بقصر الملك، وراحت الجماهير تصرخ ثائرة عليه، فنزل هذا من علياء قصره، وقد حمل تاجه بيد، وصولجانه باليد الأخرى، واستحوذ على الجماهير حين أبصرته صمت مَهيبٌ وقور، ووقف أمامهم وقال: "أيها الأصدقاء! لستم بعد الآن رعاياي فها أنا أتخلى عن تاجي وصولجاني لكم، وبودّي أن أكون واحدًا منكم. لست سوى رجلٍ عادي، غير أني أودّ كرجل، أن أعمل معكم، ونجهد جميعًا في أن يكون حظنا أوفى وأجمل وأحسن. لا حاجة إلى ملك! فلنذهب إذن إلى الحقول والكروم ونشتغل يدًا بيد. كل ما أريد منكم أن تدلوني على الحقل أو الكرم الذي ينبغي لي أن أذهب إليه، فكل واحد منكم الآن ملك!"

وعجب الناس، وخيّم عليهم الهدوء، فالملك الذي حسبوه مصدر بلائهم، تخلّى الآن عن تاجه وصولجانه وسلّمهما لهم، وأصبح كأيّ واحد منهم.

ثم ذهب كل منهم في سبيله، ومشى الملك مع أحدهم إلى بعض الحقول.

إلا أن مملكة صادق لم تسر أحسن مما كانت، وعادت سحب السخط والاستياء تتلبّد وتتراكم في آفاقها وعلى أرضها، وعاد الناس يصرخون بأعلى أصواتهم في الساحات العامة، أنهم يريدون من يحكم بينهم ويدير أمورهم، وصاح الشيب والشبّان قائلين بصوتٍ واحد: "نريد ملكنا!"

وبحثوا عن الملك فوجدوه يكدح في الحقل، وأتوا به إلى مكانه، وسلّموه تاجه وصولجانه، وقالوا: "الآن احكمنا بعزم وعدل."

قال: "سأحكمكم في الحقيقة بعزم، وأدعو آلهة السماء والأرض أن تعينني على أن أحكمكم أيضًا بعدل."

ثم جاءه رجال ونساء كلّموه في شأن والٍ أساء معاملتهم، واتخذ منهم عبيدًا، وما كان ينظر إليهم إلا على أنّهم عبيد، فأمر الملك رأسًا بإحضار الوالي، حتى إذا مثل بين يديه قال له: "إن حياة إنسان في موازين الله تعادل حياة أي إنسان غيره. وما دمت لا تعرف كيف تَزِنُ حيوات هؤلاء الذين يعملون في حقولك وكرومك، فقد نفيتك وعليك أن تترك هذه المملكة إلى الأبد."

وفي اليوم التالي جاءت الملك جماعة أخرى وكلمته في شأن أميرة قاسية القلب تقيم وراء التلال، وحدّثته عن البؤس الذي نشرته في البلاد، فجئ فورًا بالأميرة، وحكم عليها الملك أيضًا بالنفي قائلاً: "إن هؤلاء الذين يحرثون حقولنا ويبذلون العناية بكرومنا أشرف منّا نحن الذين نأكل الخبز الذي يصنعون، ونشرب الخمرة التي يعصرون. ومادمتِ لا تعرفين ذلك، فإن عليك أن تتركي هذه الأرض وتبتعدي عن هذه المملكة."

ثم جاءه رجال ونسوة أخبروه أن الأسقف يرغمهم على حمل الحجارة ونحتها لإقامة الكنيسة، ثم لا يعطيهم شيئًا لقاء عملهم هذا، وهم يعرفون أن خزائن الأسقف ملأى بالذهب والفضة، ويبيتون مع ذلك على الجوع لا يجدون ما يقتاتون به.

ونودي على الأسقف، وحين مثل بين يدي الملك قال له: "هذا الصليب الذي تحمله على صدرك، إنما يعني إعطاء حياة لقاء حياة. ولكن أنت أخذت حياةً من حياةٍ دون أن تعطي شيئًا. ولذا، عليك أن تترك هذه المملكة، وأن لا تعود أبدًا."

وهكذا، مر شهر بأكمله على الملك، وكل يوم يأتيه فيه رجال ونساء يخبرونه عن الأعباء التي ألقيت على كواهلهم، وكان كل يوم يمر من ذلك الشهر، يشهد ظالمًا أو أكثر ينفى من البلاد.

وعجب شعب صادق، وامتلأت القلوب غبطة وفرحًا.

وذات يوم أقبل الشيب والشبان وأحاطوا ببرج الملك ونادوه فأتاهم وهو يحمل تاجه بيد، وصولجانه بيد.

ثم خاطبهم قائلاً: "والآن ماذا تريدون مني؟ ها أنا أعيد إليكم الأشياء التي رغبتم إليّ في حملها."

ولكنهم صاحوا: "لا! لا! أنت ملكنا الصالح، العادل. لقد جعلت أرضنا نظيفةً من الأفاعي، ورددتها خلواً من الذئاب، ونحن جئنا نترنم بحمدك والثناء عليك. التاج لك في جلال، والصولجان لك في مجد."

أجاب الملك عندئذ قائلاً: "لا. لست أنا! لست أنا! أنتم أنفسكم الملك. فأنتم حين قدّرتم بي الضعف وسوء الحكم، كنتم أنفسكم ضعافًا سيئي الأحكام. والآن إنما تسير البلاد سيرها الحسن، لأن تلك هي مشيئتكم. ما أنا إلا فكرة في عقولكم جميعها، ولا وجود لي إلا في أعمالكم. ليس هناك شخص اسمه حاكم. المحكومون وحدهم هم الذين وجدوا ليحكموا أنفسهم."

وعاد الملك فدخل برجه مع تاجه وصبولجانه ومضى الشبان والشيب كل في سبيله وهم في غبطةٍ وسرور.

وكان كل واحد يحسب في نفسه أنّه ملك يحمل تاجًا بيد، وصولجانًا بيد.

على الرمل

قال رجل لآخر: "كتبت بطرف حذائي، عندما ارتفع مد البحر، سطرًا على الرمل. ولا يزال الناس يتوقفون عنده ليقرأوه، ويحرصون على أن لا يمحوه في المستقبل شيء."

وقال الرجل الآخر: "وأنا كتبت أيضًا سطرًا على الرمل، ولكن كان ذلك عندما انخفض المدّ، وجاءت أمواج البحر فمحته. ولكن قل لي: ماذا كتبت؟"

أجاب الرجل الأول وقال: "كتبت هذا: "أنا من هو كائن". وأنت ماذا كتبت؟"

وقال الآخر: "هذا ما كتبت: لست سوى قطرة من هذا الأوقيانوس الكبير."

الهدايا الثلاث

كان في مدينة بشرّي مرةً، أمير عطوف، محبوبٌ ومقدّر من جميع رعاياه.

غير أنه كان ثمة رجل فقير الحال، معدمٌ، جعل دأبه وديدنه ذمّ الأمير، والتشهير به، وتحريك لسانه أبدًا ودائمًا في التشنيع عليه.

وكان الأمير يعرف ذلك، ولكنه ظلّ صابرًا لا يحرك في شأنه ساكنًا.

وأخيرًا خطر بباله أن يضع له حدًا، وأرسل إليه في ليلةٍ من ليالي الشتاء خادمه، وحمّله كيس طحين، وعلبة صابون، وقالب سكر.

قرع الخادم باب الرجل وقال: "أرسل إليك الأمير هذه الهدايا، علامة تذكار، ودليل رعاية."

وشعر الرجل بالزهو، وأخذه العجب، إذ حسب أن الهدايا تكريم من الأمير له، وذهب في نشوة الكبرياء إلى المطران وأخبره بما فعل الأمير قائلاً: "ألا ترى كيف أن الأمير يطلب رضاي؟"

ولكن المطران قال: "إيه! ما أحكم الأمير، وما أقل فطنتك! إنه يتكلم بالرموز. الطحين لمعدتك الفارغة. والصابون لقذارة سريرتك. والسكر ليحلو لسانك المر."

وأصبح الرجل خجلاً منذ ذلك اليوم، حتى من نفسه. واشتدت كراهيته للأمير كما لم تكن من قبل قط، وامتدت هذه الكراهية للمطران الذي كشف له الأمير، وأطلعه على مقاصده.

إلا أنه سكت بعد ذلك، ولم يتعرض للأمير بكلمة...

السلم والحرب

كان مرة ثلاثة كلاب في الشمس يتدفّأون ويتحدثون.

قال الكلب الأول بلهجة الحالم: "إنه حقًا لعجب أن نعيش في هذا اليوم عيشة الكلاب. فكر في هذا اليسر الذي نسافر به تحت البحر، وفوق البر، وحتى في الجو. وتأمل الاختراعات التي أتت بالرفاهية للكلاب، وتمتعت بها عيوننا وآذاننا وأنوفنا."

وتكلم الكلب الثاني وقال: "إننا أكثر عناية بالفنون. إننا ننبح القمر على نحو أكثر إيقاعًا مما كان يفعل أجدادنا، وعندما نحدق إلى أنفسنا في الماء، نرى ملامحنا أنقى من ملامح الأمس وأوضح."

وتقدم الكلب الثالث وقال: "غير أن الذي يشوقني أكثر من كل ما يشوق، ويخلب لبي، إنما هو هذا التفاهم القائم بين ممالك الكلاب!"

ونظر الكلاب الثلاثة إلى ما حولهم في تلك اللحظة، وإذا بمطارد الكلاب يقترب. يا للهول!

ووثب الثلاثة، وضربوا على غير هدى في الشارع. وفيما كانوا يركضون، صاح الكلب الثالث فيهم قائلاً: "اركضوا بالله، من أجل حياتكم. المدنيّة وراءنا تتعقّبنا."

الراقصة

جاءت مرةً راقصةٌ ترافقها جوقتها الموسيقية، إلى بلاط أمير بركاشا، فأحسنت الحاشية استقبالها، ورقصت أمام الأمير على موسيقى العود والشبابة والسنطور.

رقصت رقصة اللهب، ورقصة السيوف والرماح، ورقصة النجوم والفضاء. ثم رقصت أخيراً رقصة الأزهار في الرياح.

ووقفت بعد ذلك أمام العرش، وانحنت بجسمها للأمير، فأمرها هذا أن تقترب منه، وقال لها: "أيتها المرأة الجميلة، يا ابنة النعيم والفرح، من أين أتيتِ بفنك؟ وكيف أتيح لك أن تقودي عناصر الطبيعة وتصرفيها على إيقاعاتك وقوافيك؟"

انحنت الراقصة ثانية أمام الأمير، وأجابت: "أنا لا أعرف، يا صاحبَ السمو والنعمة، جواب أسئلتك. كل ما أعرفه هو هذا: روح الفيلسوف تقيم في رأسه، وروح الشاعر في قلبه، وروح المغني تعيش في حنجرته، أما روح الراقصة فإنها تقطن في جسدها كله."

الملاكان الحارسان

التقى ذات مساء ملاكان عند بوّابة المدينة، وتبادلا التحية، وراحا يتحدثان.

قال أحدهما: "ماذا تعمل في هذه الأيام، وما هي المهمة التي أسندت إليك؟"

أجاب الآخر: "أسندت إليّ حراسة إنسان سقط، وهو يعيش في الوادي، وكان خاطئًا كبيرًا، هوى إلى أحط الدركات. واسمح لي أن أؤكد لك أنه واجب ضخم، خطير، أكابد منه عناء كبيرًا."

قال الملاك الأول: "تلك مهمة يسيرة، فكثيرًا ما تعرفت إلى خاطئين وكنت حارسًا لهم أكثر من مرة. وقد أسند إليّ أخيرًا حراسة قديس طيب القلب والنفس يعيش في ظل خيمةٍ من أغصان الشجر، منقطعًا عن الناس، معتزلاً، بعيدًا. وإني لأؤكد لك أن ذلك عمل في منتهى الصعوبة والدقة."

قال الملاك الثاني: "ليس هذا سوى ادعاء محض، إذ كيف يمكن أن تكون حراسة قديس أصعب من حراسة خاطئ؟"

أجابه الآخر: "أيّة قِحَةٍ هذه أن تحسبني مدّعيًا! أنا لم أقرر سوى الحقيقة. ويبدو لي أنك أنت المدّعي!"

وهنا أخذ الملاكان في شجار وعراك، بدأ بالكلام، وانتهى بالقبضات والأجنحة.

وفيما كانا يتعاركان مر بهما ملاك أعلى، فوقف وقال: "لِمَ تتنازعان؟ وما هو الأمر الذي جرّكما إلى هذا العراك كله؟ ألا تعلمان أن العراك بين الحرس من الملائكة أبعد ما يكون عن اللياقة، ولا سيما عند بوابة المدينة؟ أخبراني، ما هو الخلاف بينكما؟"

وراح الملاكان يتكلمان معًا في آن واحد، وكل يدّعي أن العمل الذي وكل إليه أصعب من عمل زميله، وأنه هو الذي يستحق الإقرار الأكبر بفضله.

هز الملاك الأعلى رأسه وأمعن يتأمل...

أخيرًا قال: "لا أستطيع يا صاحبي أن أقول لكما الآن أيكما أحق بالشرف الأكبر والمكافأة الأولى، ولكن ما دامت السلطة ممنوحةً لي، فإني أعطي لكل منكما عمل الآخر، حفاظًا على السلامة وتأمينًا للحراسة، وسيكون كل منكما مغتبطًا، وهو الذي يصر على أن واجب الآخر أيسر من واجب زميله. اذهبا الآن، وليسعد كل منكما بالعمل الذي أسند إليه."

ومضى الملاكان ينفذان الأمر الذي وجه إليهما، غير أن كل واحد منهما راح ينظر وراءه إلى الملاك الأعلى، شزرًا، ويقول في سره: "آهٍ من هؤلاء الملائكة الأعلين! إنّهم يجعلون الحياة لنا نحن الملائكة، أعسر فأعسر، يومًا بعد يوم."

ولكن الملاك الأعلى وقف هناك، وراح يحدث نفسه، ويقول في سره: "علينا، في الواقع، أن نكون حذرين، وأن نقيم حرسًا على الملائكة الحارسين."

التمثال

كان ثمة رجل يعيش فوق الروابي، ولديه تمثال نحته أحد الأساتذة الأقدمين، وقد ألقي مطروحًا على الأرض أمام بابه، فلم يكن يعيره أدنى اهتمام.

ومر ذات يوم بمنزله رجل من المدينة، كان ذا بصر ومعرفة، ومنذ شاهد التمثال، سأل عن صاحبه يريد شراءه.

ضحك صاحب التمثال وقال: "أفأنت ترجو من يود أن يجد شاريًا لهذا الحجر القذر الكاسد؟"

قال ابن المدينة: "أعطيك هذه القطعة من الفضة لقاءَه."

ودهش الرجل وفرح.

ونقل التمثال إلى المدينة على ظهر فيل. وذهب رجل الروابي إلى المدينة في زيارة، بعد عدة أشهر. وفيما هو يجوب شوارعها، وقع نظره على جمهور من الناس أمام دكان، وفيهم رجل يصرخ بصوت عالٍ: "تعالوا وادخلوا، فهاهنا أجمل وأعجب تمثالٍ في العالم

كله. يمكنكم بقطعتين فقط من الفضة أن تشاهدوا أبدع ما صنع أستاذٌ في فن النحت."

وعند ذاك، دفع رجل الروابي قطعتين من الفضة، ودخل الدكان ليشهد التمثال، فإذا هو ذاك الذي كان قد باعه بقطعة واحدة من الفضة!

المبادلة

لقي شاعر فقير مرة غنيًا غبيًا عند ملتقى طرق، ودار بينهما حديث طويل. وكان كل ما قالاه ينمّ عن استياء وسخطِ، ولا شيء سوى سخطٍ واستياء.

ومرّ آنذاك ملاك الطريق، ووضع يده على كتف الرجلين، وإذا بمعجزة تتحقق: لقد انتقلت أملاك كل منهما للآخر.

ثم انصرفا. وكان أغرب ما جرى لهما أن الشاعر نظر فلم يجد في يده شيئًا سوى رملٍ جاف متحرك، والغبي أغمض عينيه ولم يشعر بشيء سوى غيمة متحركة في قلبه!

حب وبغض

قالت امرأة لرجل: "أنا أحبك." وقال الرجل: "إنما أكون أهلاً لحبك هذا، في قلبي."

وقالت المرأة: "ألا تحبّني أنت؟"

وحدق الرجل إليها مليًا ولم يقل شيئًا.

عند ذاك صرخت المرأة بصوتٍ عالٍ: "أنا أكرهك." وقال الرجل: "إنما أكون إذن أهلاً لبغضك، في قلبي أيضًا."

أحلام

رأى رجل حلمًا في نومه، وعندما أفاق ذهب إلى عرّافه، وطلب إليه أن يفسّر له رؤياه.

قال العراف للرجل: "تعال إليّ مع الأحلام التي تراها في يقظتك. وسأخبرك عن معناها، أما الأحلام التي تراها في نومك، فإنها مما لا تناله معرفتي، ولا يدركه خيالي."

المجنون

كان ذلك في حديقة المارستان: لقيت شابًا شاحب الوجه، رائع الطلعة، يثير العجب.

وجلست بجانبه على المقعد وقلت: "لِمَ أنتَ هنا؟"

نظر إليّ بدهشة وقال: "ذاك سؤال غير لائق، ولكني أجيب عنه مع ذلك: أراد أبي أن يجعل مني نسخةً جديدة عنه، وكذلك أراد عمي.

وشاءت والدتي أن أكون صورة عن أبيها الشهير، وأختي شاءت أن تجعل لي من زوجها البحّار المثل الأكمل الذي ينبغي لي أن أقتدي به. وأخي حسب أن عليّ أن أكون مثله، بطلاً رياضيًا مرموقًا.

"وكذلك هو شأن أساتذتي، من الدكتور في الفلسفة، إلى أستاذ الموسيقى، إلى المناطقة، قرّروا جميعهم، وكل واحد منهم أرادني على أن أكون انعكاسًا لوجهه في مرآة.

"ولذلك، جئت إلى هذا المكان. وإنّي لأجده أردّ بالسلامة عليَّ والعافية. فأنا أستطيع به أن أكون إياي، لا غيري، على الأقل."

ثم دار فجأة نحوي، وقال: "ولكن قل لي: هل ساقتك إلى هذا المكان أيضًا نصائح الآخرين ورغبتهم في تثقيفك؟"

أجبته: "لا! أنا زائر."

قال: "أنت إذن واحدٌ من أولئك الذين يعيشون في المارستان القائم وراء الجانب الآخر من الجدار."

الضفادع

قالت ضفدعة لرفيقتها، في يومٍ من أيام الصيف: "أنا أخشى أن نزعج أولئك القوم الذين يقيمون في ذلك البيت، على الشاطئ، بأغانينا الليلية."

أجابت رفيقتها قائلة: "حسن! ولكن ألا تجدين أنهم يعكّرون صمتنا أثناء النهار بثرثرتهم؟"

قالت الضفدعة: "يجب أن لا يغرب عن بالنا أننا نكثر الغناء، ونغلو في الإكثار منه، أثناء الليل!"

قالت رفيقتها: "ويجب أن لا يغرب عن بالنا أنهم يكثرون الضجيج والثرثرة، ويغالون في اللغط أثناء النهار."

قالت الضفدعة: "ما القول في فحل الضفادع الذي يزعج الجيران كلهم بهديره المحرذم؟"

أجابت رفيقتها: "نعم! وما تقولين في السياسي والكاهن والعالم الذين يرتادون هذا الشاطئ ويملأون الهواء بضوضاء لا رويّ لها ولا إيقاعًا؟"

قالت الضفدعة: "حسن! فلنكن أفضل من هذه الكائنات البشرية. لنهدأ في الليل، ولنحتفظ بأغانينا في قلوبنا، حتى وإن تاق القمر إلى أنغامنا، وتطلعت النجوم إلى إيقاعنا. لنصمت ليلة أو ليلتين على الأقل، وحتى ثلاث ليالٍ متواليات."

قالت رفيقتها: "حسن جدًا! أنا أوافق. وسنرى ما سينجم عن طيبة قلبك."

ومرّت تلك الليلة، والضفادع صامتة. وصمتت أيضًا في الليلة التي تلت، ثم في الليلة الثالثة.

وكان أغرب ما جرى أن المرأة الثرثارة التي كانت تقيم في البيت القائم بجانب البحيرة، نزلت في اليوم الثالث تتناول فطورها، وصاحت لزوجها: "مرت الليالي الثلاث الماضية لم أذق خلالها طعم النوم. لقد كنت أغفو على نقيق الضفادع، ولابد من أن يكون هنالك شيء قد حدث، فإني لم أسمع لها صوتًا منذ ليالٍ ثلاث، ويكاد جنوني يُجَنّ من الأرق."

سمعت الضفدعة هذا الكلام، ودارت نحو رفيقتها، وقالت وهي تغمز بطرف عينها: "ونحن كدنا نجنّ من الصمت. ألم نكد نجن؟"

أجابت رفيقتها: أجل! كان صمت الليل ثقيلاً علينا. وقد أصبح في مستطاعي الآن أن أدرِك أن لا حاجة بنا إلى الانقطاع عن الغناء، ترفيهًا عن أولئك الذين يملأونَ فراغ نفوسهم بالضجيج."

الشرائع والتشريع

كان في العصور السالفة ملكٌ كبير، وكان هذا الملك حكيمًا. وقد رغب في سنّ الشرائع لرعاياه.

ودعا بألف حكيم اختارهم من ألف قبيلة، وطلب إليهم سن القوانين ليعمل بها في المملكة الكبيرة، المترامية الأطراف.

وعندما وضعت القوانين المكتوبة على الرق - وعددها ألف - أمام الملك وأخذ في قراءتها، بكى في سرّه بكاء مرّا، إذ لم يكن يعرف أن في مملكته ألف شكل للجريمة.

ثم دعا بكاتبه، وراح يملي عليه بنفسه الشرائع، والابتسامة تعلو شفتيه، حتى إذا انتهى لم يتجاوز عدد القوانين التي وضعها السبعة.

وتركه الحكماء الألف وهم غاضبون وعادوا إلى قبائلهم ومعهم الشرائع التي سنّوها، وراحت كل قبيلة تأخذ بالشريعة التي وضعها حكماؤها.

لذلك، كان لديهم ألف شريعة حتى يومنا هذا.

إنه بلد كبير، ولكن لديه ألف سجن، وهذه السجون ملأى برجال ونساءٍ من الخارجين على الألف شريعة.

إنه في الحقيقة بلد كبير، ولكن أهله تحذروا من ألف مشترع وملك حكيم واحد.

أمس، واليوم، وغدًا

قلت لصديقي: "هل ترى إلى اتكائها على ذراع ذلك الرجل؟ لقد كانت حتى الأمس تتكئ على ذراعي."

قال صديقي: "وغدًا تتكئ على ذراعي."

قلت: "انظر إلى جلوسها بجانبه! لقد كانت حتى الأمس تجلس هكذا بجانبي."

أجاب: "غدًا ستجلس بجانبي."

قلت: "انظر! إنها تشرب الخمرة من كأسه، وأمس كانت تشربها من كأسي."

قال: "غدًا تشربها من كأسي."

قلت: "انظر كيف تحدق إليه بحنان، وعينين مستسلمتين. كانت حتى أمس تحدق هكذا إليّ."

قال صديقي: "يمكن أن تحدق إليّ هكذا غدًا."

قلت: "ألا تسمعها الآن وهي تتمتم بترانيم الحب في أذنيه؟ هذه الترانيم ذاتها هي التي كانت تتمتمها حتى الأمس في أذنيّ."

قال: "وغدًا ستهمس بها في أذنيّ."

قلت: "أنظر! إنها تعانقه. كانت إلى أمس فقط تعانقني."

قال: "غدًا ستعانقني أيضًا."

قلت عندئذٍ: "يا لها من امرأة غريبة!"

ولكنه أجابني: "إنها شبيهة بالحياة يتمتع بها كل الرجال، وشبيهة بالموت تقهر كل الرجال، وشبيهة بالأبدية تحتضن كل الرجال."

الفيلسوف والإسكافي

جاء مرة فيلسوف بحذاء ممزق، إلى دكان إسكافي، وقال له: "أرجو إصلاح حذائي."

قال الإسكافي: "أنا أصلح الآن حذاء رجل آخر، ولديّ أحذية أخرى، مضطر إلى ترقيعها، قبل أن يصل الدور لحذائك. غير أن في إمكانك أن تتركه هنا، وتلبس هذا الحذاء اليوم، وغدًا تأتي وتلبس حذاءك بعد أن أكون قد أصلحته."

اغتاظ الفيلسوف وقال: "أنا لا ألبس حذاء ليس لي."

قال الإسكافي: "حسن إذن! أحقًا أنت فيلسوف ولا تستطيع أن تضع قدميك في حذاء رجل آخر؟ هناك في أول هذا الشارع نفسه إسكافي آخر، يفهم الفلاسفة أكثر مني، اذهب إليه للقيام بعملية الإصلاح."

بناء الجسور

أقيم في انطاكية، حيث يجري نهر العاصي ليصب في البحر، جسرٌ يصل نصف المدينة بنصفها الآخر، وقد بني من حجارة عريضة نقلت من الروابي على ظهور بغال انطاكية.

وعندما انتهى الجسر، نُقش على أحد أعمدته بالإغريقية والآرامية: "بنى هذا الجسر الملك انطيوخوس الثاني"

وكان الناس جميعهم يعبرون من ضفة إلى ضفة فوق الجسر الذي وصل ما انقطع بين نصفي المدينة.

وذات مساء نزل شاب يحسبه البعض مجنونًا إلى حد ما، واستمر ينزل حتى بلغ العمود الذي نقشت عليه تلك الكلمات، وغطاها بالفحم، وكتب فوقها: "حجارة هذا الجسر جيء بها من الروابي على ظهور البغال. وأنتم إذ تمرون فوقه جيئة وذهابًا، إنما تركبون ظهور بغال انطاكية بُناة هذا الجسر."

وعندما قرأ الناس ما كتبه الشاب، ضحك بعضهم، وتعجب آخرون. وفيهم من قال: "ها! نعم! إنّا لنعرف الذي فعل ذلك. أما هو ذلك المجنون الصغير؟"

ولكن بغلاً قال، وهو يضحك، لبغلٍ آخر: "ألا تتذكر أننا حملنا تلك الأحجار؟ ومع ذلك، لا يزال هناك من يقول حتى الآن، إن الملك أنطيوخوس هو الذي بنى الجسر."

حقل زا آد

لقي مسافر على طريق زا آد، رجلاً كان يقيم في قرية مجاورة، فسأل المسافر الرجل، وهو يشير بيده إلى حقل واسع: "ألم يكن هذا الحقل ساحة القتال الذي انتصر به الملك أهلام على أعدائه؟"

أجاب الرجل قائلاً: "هذا لم يكن قط ساحة قتال، وإنما كانت تقوم هناك مدينة زا آد الكبيرة، وقد أحرقت حتى تحوّلت إلى رماد. غير أنها أصبحت الآن حقلاً خصيبًا. أما هي كذلك؟"

وانصرف كل من الرجل والمسافر إلى شأنه.

وقبل أن يقطع المسافر نصف ميل بعد، لقي رجلاً آخر، وأشار بيده إلى الحقل مرة ثانية، وقال: "أهذا هو المكان الذي كانت تقوم فيه مدينة زا آد الكبرى؟"

قال الرجل: "لم يكن ثمة مدينة في هذا المكان قط. وإنما كان هناك مرة دير، وقد دُمر على أيدي فئة من أهل القطر الجنوبي."

وبعد قليل لقي المسافر، على طريق زا آد نفسها، رجلاً ثالثًا وأشار مرة أخرى إلى الحقل الفسيح وقال: "أليس صحيحًا أن هذا هو المكان الذي كان يقوم فيه دير كبير من قبل؟"

أجابه الرجل: "لم يكن قط في هذا الجوار دير، ولكن آباءنا وأجدادنا أخبرونا أن شهابًا كبيرًا وقع مرةً فوق هذا الحقل."

وتابع المسافر سيره، متعجبًا في سره. ثم لقي، وهو يمشي، رجلاً عجوزًا طاعنًا في السنّ، فحياه، وقال له: "لقيت أيها السيد، على هذه الطريق ثلاثة رجالٍ يقيمون في هذا الجوار، وقد سألت كل واحدٍ منهم عن هذا الحقل، وكل واحد منهم نفى ما قاله الآخر، وروى لي حكاية جديدة لم يذكرها الآخر.

رفع الشيخ العجوز رأسه، وأجاب: "كل واحد من هؤلاء الرجال أخبرك في الحقيقة، يا صاحبي، عما كان. ولكنْ قلّةٌ منا هم الذين يقدرون على إضافة واقع إلى واقع مختلف، ويؤلفون من ذلك حقيقة."

الحزام الذهبي

تلاقى ذات يوم رجلان كانا يسيران على الطريق إلى سالاميس، مدينة الأعمدة، فترافقا، ووصلا عند منتصف الأصيل إلى نهرٍ عريضٍ، وليس من جسرٍ يربط بين ضفتيه، فكان عليهما أن يسبحا، أو يسلكا طريقًا آخر لا يعرفانه.

وقال واحدهما للآخر: "فلنسبح! فالنهر ليس عريضًا لدرجة نتجشم بها مشقة السير على طريق نجهله." وألقيا بنفسيهما للماء.

وما هي إلا فترة قصيرة حتى أخذ أحدهما يفقد فجأة توازنه، ويدفعه التيار بعيدًا، وهو لا يملك من أمره شيئًا، وكان من قبل يعرف الأنهار ومسالكها، بينما الآخر الذي لم يسبح قطّ من قبل، قطع النهر على خطٍ مستقيم، ووقف على الضفة المقابلة. ومذ بصر برفيقه يصارع التيار، قذف بنفسه ثانية في الماء وجرّه سالمًا إلى الشطّ.

وقال الرجل الذي جرفه التيار: "أخبرتني أنّك لا تحسن السباحة، فكيف إذن قطعت النهر بمثل هذه الثقة؟"

أجاب الرجل: "أترى يا صديقي إلى هذا الحزام الذهبي الذي يطوقني؟

إنّه مليء بالنقود الذهبية التي حصلت عليها خلال عامٍ كامل من العمل، في سبيل زوجتي وأولادي. إنها قيمة هذا الحزام الذهبي التي حملتني عبر النهر، إلى زوجتي وأولادي، وهؤلاء كانوا فوق كتفيّ وأنا أسبح."

وتابع الرجلان سيرهما معًا نحو سالاميس.

التراب الأحمر

قالت شجرة لرجل: "إن جذوري توغل عمقًا في التراب الأحمر، وسأعطيك من ثمري."

وقال الرجل للشجرة: "ما أشبه الواحد منا بالآخر. إن جذوري عميقة أيضًا في التراب الأحمر. والتراب الأحمر يمنحك القوة لتهبيني من ثمرِكِ، وهو الذي يعلّمني أن أتقبّل منك مع الامتنان."

البدر الكامل

طلع البدر كاملاً، مجيدًا، على المدينة، وراحت كلاب تلك المدينة جميعها، تنبح القمر.

إلا أن هنالك كلبًا واحدًا لم ينبح، قال لرفاقه بصوت صارم: "لن توقظوا الموات من سباته، ولن تنزلوا القمر إلى الأرض بالنباح."

وانقطع حينئذ جميع الكلاب عن النباح، وساد صمت راعب. ولكنّ الكلب الذي كلّم الجمع، استمرّ في نباحه من أجل الصمت، طوال الليل بأكمله.

النبي الناسك

كان هناك مرة نبيّ منقطع للعبادة والنسك، ولم يكن يترك صومعته سوى ثلاث مرات في الشهر، يذهب خلالها إلى المدينة، يعظ الناس في الأسواق ويدعوهم إلى بذل العون والمشاركة في حمل الأعباء، وكان فصيحًا، بليغًا، قادرًا على الإقناع، حتى طار صيته في طول البلاد وعرضها.

وذات يوم قدم إلى صومعته ثلاثة رجال، حيّاهم وأكرم وفادتهم ثم قالوا له: "وعظت الناس بالبذل والمشاركة، وكنت تبغي تعليم أولئك الذين لديهم الكثير، أن يقدموا لمن ليس لديهم سوى القليل، ونحن لا يخامرنا شكّ في أنّ شهرتك عادت عليك بأموالٍ طائلة. فالآن، تعال وقدّم لنا من أموالك، فإنّا في حاجة وفاقة."

أجاب الناسك وقال: "ليس لديّ أيها الأصدقاء شيء سوى هذا الفراش وهذا اللحاف وهذا الإبريق. خذوها إذا كنتم ترغبون فيها. أنا لا أملك فضة ولا ذهبًا."

عند ذاك نظروا إليه بازدراء، وأداروا وجوههم عنه، ووقف آخرهم عند الباب لحظةً وقال: "أوه! أنت تغش! أنت تخادع! إنّك لتعلّم وتعظ أشياء لم تبدأ بتحقيقها في نفسك!"

الخمرة العتيقة، العتيقة

كان غنيّ مرةً كثير الافتخار بقبوه والخمر المعتّقة فيه، وكان ثمة إبريق احتفظ به لمناسبة لا يعرفها أحدٌ غيره.

وزاره حاكم الدولة، فأبدى له امتنانه على زيارته وقال له: "لن يفرغ هذا الإبريق من أجل حاكم تفضل بزيارة."

وزاره مطران الأبرشيّة فقال لنفسه: "لا! لن أفرغ هذا الإبريق، فهو لن يعرف قيمته، ولن يبلغ أريجه أنفه."

وجاء أمير المملكة وتناول عشاءه معه، فقال الغني في سره: "إنها خمرة ملكية، فلا يصح إهراقها من أجل أمير!"

وقال لنفسه أيضًا، حتى عندما تزوّج ابن أخيه: "لا! ليس لمثل هؤلاء الضيوف يفرغ مثل ذلك الإبريق."

ومرت الأعوام تتلوها الأعوام، ومات عجوزًا، متهافتًا، ودفن في التراب كأيّ بذرة أو بلّوطة.

وفي اليوم الذي دفن به، جيء بالإبريق الذي لم يسخُ به لأحد، مع غيره من أباريق الخمر، وتقاسمه فلاّحو الجوار. وما من أحدٍ عرف عمره الكبير.

كان في نظر الذين شربوه خمرًا كغيرها من الخمور.

القصيدتان

تلاقى على طريق أثينا، قبل قرونٍ متطاولة، شاعران، وكان كل واحدٍ منهما مسرورًا بلقاء الآخر.

سأل أحدهما الثاني قائلاً: "ماذا نظمت أخيرًا، وكيف هي قريحتك في هذه الأيام؟"

أجاب الثاني بزهو قائلاً: "لقد انتهيت إلى لحظات خلت من نظم أروع قصيدة قيلت حتى الآن بالإغريقية. إنها مناجاة لزوس الأعلى!"

ثم تناول من باطن جلبابه رقًا، وقال: "ها هي هنا. إنها معي. وإنّه ليسرني أن أتلوها عليك. تعال ولنجلس في ظلّ هاتيك السروة البيضاء."

وراح الشاعر يتلو قصيدته، وكانت طويلة.

وقال له الشاعر الآخر برقّة ولطف: "إنها قصيدة طويلة. ستظل حيّة مدى العصور، وستمجّدك عليها الأجيال."

قال الأول بهدوء: "وماذا نظمت أنت آخر ما نظمت؟"

أجاب الثاني: "لم أنظم سوى القليل. نظمت ثمانية أبيات فقط تذكارًا لصبيّ كان يلعب في الحديقة."

وتلا الأبيات.

قال الشاعر الأول: "ليس رديئًا لدرجةٍ كبيرة. ليس رديئًا لدرجة كبيرة."

ومضيا.

واليوم بعد ألفي سنة، لا تزال الأبيات الثمانية التي نظمها الشاعر الثاني تدور على كل لسان، ويردّدها الناس بإعجاب وإعزاز.

أمّا القصيدة الطويلة، فإنها وإن تناقلتها الأجيال من بعد في المكتبات، وحجرات الباحثين والدارسين، وكان الناس يذكرونها، لا تلقى من يحبها، ولا من يتلوها.

الليدي روث

وقف مرةً ثلاثة رجالٍ يتأملون من بعيد بيتًا أبيض اللون يقوم وحده فوق رابية خضراء، فقال أحدهم: "ذلك هو بيت الليدي روث. إنها ساحرة عجوز."

وقال الثاني: "أنت مخطئ. الليدي روث امرأة جميلة تعيش منقطعة هناك إلى أحلامها."

وقال الثالث: "كلاكما على خطأ. الليدي روث صاحبة هذه الأرض الفسيحة، وهي تمتصّ دم العبيد الذين يعملون فيها."

ومضوا يتجادلون حول الليدي روث.

وحين بلغوا مفترق طرق لقوا رجلاً طاعنًا في السن، فسأله أحدهم قائلاً: "هل لك أن تخبرنا ما شأن الليدي روث التي تقيم في ذلك البيت الأبيض، فوق الرابية؟"

رفع الشيخ رأسه، وابتسم ساخرًا منهم، وقال: "أنا في التسعين من سنيّ، وإني لأتذكر الليدي روث منذ كنت صبيًا صغيرًا. غير أن الليدي روث ماتت منذ ثمانين عامًا، والبيت الآن خاوٍ تنعب فيه البوم، والناس يقولون أحيانًا: إنّه مسكون."

الفأرة والهر

لقي شاعر ذات مساءٍ فلاحًا. وكان الشاعر جافيًا، والفلاح خجولاً، ومع ذلك دار بينهما الحديث.

قال الفلاّح: "دعني أقصّ عليك قصة قصيرة سمعتها أخيرًا. وقعت فأرة في فخّ، وفيما كانت تأكل جبنة الفخ سعيدةً بالعثور عليها، وقف بجانبها هر. ارتجفت الفأرة لأول وهلة، ولكنها كانت تعلم أنها في أمانٍ داخل الفخ.

ثم قال الهر: "لقد أكلت آخر وجبة يا صديقتي."

أجابت الفأرة: "إنّ لي حياة واحدة وإذن سأموت ميتة واحدة. ولكن ما شأنك أنت؟ لقد خُبِّرتُ أن لك تسع حيوات. ألا يعني ذلك أنه سيكون عليك أن تموت تسع ميتات؟"

ونظر الفلاّح إلى الشاعر وقال: "أليست هذه قصة غريبة؟"

لم يجبه الشاعر، ولكنه مشى بعيدًا عنه قائلاً في سره: "إن لنا على وجه التأكيد تسع حيواتٍ، تسع حيوات على وجه التأكيد. وعلينا

أن نموت تسع مرات. تسع مرات علينا أن نموت. ربما كان من الأفضل أن لا يكون لنا سوى حياةٍ واحدة، أطبق عليها فخ، حياة فلاح مع قطعة جبن لآخر وجبة. ألسنا مع ذلك أنسباء السباع في الصحاري والأدغال!"

اللعنة

قال لي مرة بحّار عجوز: "لقد مضى على ذلك البحار الذي خطف ابنتي وهرب بها ثلاثون عامًا. ورحت ألعنهما في قلبي، إذ كنت لا أحبّ في هذا العالم أحدًا، سوى ابنتي.

"ولم يكد يمضي زمن غير طويل على ذلك، حتى غاص البحار بمركبه إلى قاع البحر، وخسرته، وخسرت معه ابنتي الحبيبة.

"والآن أنظر فيّ إلى قاتل شابّ وفتاة. إنها لعنتي التي قضت عليهما. وإني لأرجو مغفرة الله وأنا في الطريق الآن إلى القبر."

هذا ما قاله العجوز. ولكن لهجته كانت تنمّ عن زهو وافتخار، ويبدو أنّه لا يزال فخورًا بقوة لعنته.

الرمانات

كان لرجل مرةً عدد وافر من أشجار الرمان في بستانه. وكان في أكثر من خريف يضع رمانه على أطباقٍ فضية خارج مسكنه، ويضع على الأطباق علامات يكتبها بيده: "خذ واحدة لقاء لا شيء. أهلاً بك."

غير أنّ الناس كانوا يمرّون بالأطباق، وما من أحدٍ يأخذ شيئًا من الثمار.

عند ذاك فكّر الرجل في نفسه، حتى إذا أقبل الخريف التالي لم يضع رمانًا على أطباق فضية خارج منزله، ولكنه أبرز العلامة الآتية وكتبها بحروفٍ كبيرة: "لدينا هنا أفضل رمان تنتجه الأرض، ولكننا نبيعه بثمن أغلى من أثمان سائر الرمان."

وتدفّق الناس عليه بعد ذلك من رجال الجيرة ونسائها يشترون.

الله والآلهة العديدة

جلس سفسطائي في مدينة كيلافيس، على دَرَج المعبد، وراح يدعو الناس إلى الآلهة العديدة، والناس يقولون في قلوبهم: "إنا لنعرف كلّ ذلك. ألا تعيش هذه الآلهة معنا وتتبعنا أينما ذهبنا؟"

ولم يمض على ذلك زمن طويل، حتى وقف رجل آخر في ساحة المدينة يخطب الناس ويقولون لهم: "ليس هناك إله." وقد فرح كثيرٌ ممن سمعوه بهذه البشائر، إذ كانوا في جزعٍ من الآلهة.

وذات يوم أقبل رجل قويّ العارضة، بليغ الحجّة، وقال: "ليس هناك سوى إله واحد." وجزِعَ الناس في قلوبهم، وخافوا حكم إله واحد، أكثر مما كانوا يخشون حكم آلهة عديدة.

وجاء في الموسم نفسه رجلٌ آخر وقال للناس: "هنالك ثلاثة آلهة تقيم فوق الريح كأنها واحد، ولهم أم حانية، واسعة الصدر، تقوم مقام رفيقة لهم وأخت في آنٍ واحد."

عند ذاك سُرِّيَ عن الجميع، إذ قالوا في سرّهم: "ثلاثة آلهةٍ في واحد، يقتضي أن يختلفوا على عيوبنا، وإلى ذلك، فإنّ أمهم ذات القلب الحنون، لا بدّ أن تقف بجانبنا وتدافع عن نقاط ضعفنا."

ولا يزال حتى اليوم في مدينة كيلافيس تلك، أولئك الذين يتجادلون ويتنازعون حول الآلهة العديدة، وليس هناك إله، والإله الواحد، والآلهة الثلاثة في واحد، وأم حنون للآلهة.

تلك التي كانت صماء

كان مرّة لرجل غنيّ زوجة شابّة، ولكنّها كانت صماء صمم الحجر.

وذات صباح، بينما كان الغنيّ وزوجته يتناولان فطورهما، بدأت هذه الكلام وقالت: "زرت السوق أمس، ورأيت فيما رأيت من معروضاته، رداءً حريريًا صنع دمشق، وأبرادًا هندية، وعقودًا فارسيّة، وأساور يمانية. وبدا أن القوافل اقتصرت على هذه الأشياء في كل ما جلبت إلى المدينة. والآن انظر إليّ، وأنا بهذه الأطمار البالية، أنا زوجة الثريّ المعروف. أريد منك بعض هذه الأشياء الجميلة."

قال الزوج، وهو ما يزال يحتسي قهوة الصباح: "عزيزتي! ليس هناك ما يبرر عدم نزولك إلى السوق وابتياع كلّ ما يشوقك، ويرتاح إلى نيله فؤادكِ."

وكان من الزوجة الصمّاء أن قالت: "لا! أبدًا تقول: لا! لا! هل قدّر عليّ أن أظهر في الأسمال بين أصدقائنا وصديقاتنا ليخجل بي أهلي، ويُخجلَ الناس ثراءك؟"

قال الزوج: "لم أقل: لا. يمكنك أن تذهبي إلى السوق، وتبتاعي أجمل الحلى والزينات التي وردت إلى هذه المدينة."

وأساءت الزوجة فهم كلام زوجها للمرة الثانية، وأجابت: "أنت أشحّ الأغنياء جميعهم. إنّك لتأبى عليّ كلّ ما هو جمال وأناقة، بينما يطوف نساء جيلي حدائق المدينة رافلاتٍ في أبدع الحلل القشيبة وأغلاها."

واستخرطت في البكاء. وفيما كانت دموعها تتهاوى على نحرها، صاحت للمرة الثانية: "دومًا تقول: لا! لا! كلما رغبت في حلية أو رداء."

وهنا اضطرب الزوج ووقف، وتناول من خزينته حفنةً من النقود الذهبية، ووضعها أمامها، قائلاً بصوت رقيق ناعم: "اذهبي إلى السوق يا عزيزتي واشتري كل ما تريدين."

ومنذ ذلك اليوم، أخذت الزوجة الشابّة الصمّاء تظهر أمام زوجها بدرّة من الدمع في عينيها كلما رغبت في الحصول على شيء، وهو يتناول من جانبه صامتًا، حفنةً من الذهب، ويلقي بها في حضنها.

ثمّ حدث أن وقعت المرأة الشابّة في هوى شابٍ من عادته أن يقوم برحلات طويلة، وكلّما سافر في رحلة، جلست في مخدعها

تبكي. وكان زوجها عندما يجدها على تلك الحال من البكاء، يقول في سرّه: "لابدّ من أن تكون ثمة قافلة جديدة قد وصلت، وبعض الحليّ والحلل النادرة قد عُرضت في السوق."

وعند ذاك يتناول حفنة من الذهب، ويلقي بها إليها...

المسألة

تلاقى فيلسوفان، قبل نحو من ألف سنة، فوق منحدرٍ من لبنان، فقال أحدهما للآخر: "إلى أين أنت ذاهب؟"

أجاب الآخر: "أنا أبحث عن عين الصبا التي أعرف أنها تنبع وسط هذه الروابي. وقد عثرت على كتابات تنبئ أن تلك العين تتألّق تألّق الزهرة مع الشمس. وأنت عمَّ تبحث؟"

أجاب الأول: "أنا أبحث عن سرّ الموت."

وأدرك حينذاك كلّ من الفيلسوفين أن الآخر ينقصه الشيء الكثير من العلم، على سعة معرفته، وراحا يتنازعان، ويتهم كلّ منهما الآخر بالعماوة الروحية.

وفيما كان الفيلسوفان يصخبان صخب الريح، مرّ بهما غريبٌ كان يحسبه أهل قريته ساذجًا، مسكينًا لا يدرك شيئًا، ومنذ سمع الجدال الصاخب الذي يرتفع من جانب الرجلين، وقف برهة يصغي إلى حجة كلٍّ منهما.

ثم اقترب منهما وقال: "يبدو أنّكما، يا صاحبيّ، تنتميان معًا إلى مدرسة فلسفية واحدة، فأنتما تتحدثان عن شيء واحد، ولكن بكلمات مختلفة. إنّ أحدكما يبحث عن عين الصبا، والآخر يبحث عن سرّ الموت، وهما في الحقيقة شيءٌ واحد، وهذا الشيء نفسه يقيم فيكما معاً."

وابتعد الغريب عنهما، وهو يقول: "وداعًا أيها الحكيمان!" وفيما كان يدير ظهره منصرفًا، سُمِعَ وهو يضحك ضحكة هادئة.

ونظر الفيلسوفان كلّ منهما للآخر في صمت لحظة، ثم ضحكا أيضًا، وقال أحدهما لزميله: "حسن! ألا يحسن بنا الآن أن نمشي ونبحث معًا؟"

الصولجان

قال ملكٌ لزوجته: "لستِ يا سيدتي ملكة حقًا! أنتِ جدّ عادية ومبتذلة، وغير لائقة لأن تكوني رفيقة حياتي!"

قالت الزوجة: "أنت تحسب نفسك ملكًا، وما أنت في الحقيقة سوى رجع صدى مسكين لمن قبلك!"

وأغاظت هذه الكلمات الملك، فتناول صولجانه بيده، ضرب الملكة على جبينها بالقبضة الذهبية منه.

ودخل رئيس الخدم في تلك اللحظة وصاح: "ماذا؟ ماذا يا صاحب الجلالة؟ هذا الصولجان صنعه أكبر فنان في البلاد. واحسرتاه! سوف يأتي يوم تُنسى به أنت والملكة، وهذا الصولجان يُحفظ كرائعة فنية، من جيلٍ لجيل. والآن وقد أسلت الدم به من رأس صاحبة الجلالة، فإنّه سيصبح أوفر اعتبارًا وأكثر تذكرًا."

الطريق

كانت امرأة تعيش في أعالي الرُّبَى مع ابنها، وكان بكرَها ووحيدَها، الذي تنفق عليه كلّ ما في قلبها وحياتها من عطف وحنان.

ومات الولد بحمّى فاجأته، والطبيب واقف بجانبه.

وسحق الأسى قلب الأم، وراحت تصرخ وتولول، وتخاطب الطبيب قائلة: "قل لي! قل لي! ما الذي أسكن حركته، وأسكت غناءه؟"

قال الطبيب: "إنها الحمى."

قالت الأم: "وما هي هذه الحمّى؟"

أجاب الطبيب: "لا أستطيع شرحها. إنها شيء متناهٍ في الصغر، يزور الجسم، ولا نقدر على رؤيته بالعين المجرّدة."

ثم تركها الطبيب، وراحت تكرّر ما قال، لنفسها: "شيء متناهٍ في الصغر، لا نقدر على رؤيته بالعين المجرّدة."

وجاء الكاهن في المساء يعزّيها، فراحت تبكي بين يديه وتُعْوِلُ قائلة: "لماذا فقدت ولدي، ولدي الوحيد، ولدي البكر؟"

أجاب الكاهن: "إنها يا ابنتي مشيئة الله!"

قالت المرأة: "ما هو الله وأين هو الله؟ أريد أن أشاهده لأمزّق صدري أمامه، وأنزف دم قلبي على قدميه. قل لي أين أستطيع أن أجده؟"

قال الكاهن: "الله رحبٌ لا نهاية لرحابته. ولا سبيل إلى رؤيته بالعين البشرية المجرّدة."

صرخت المرأة عند ذاك: "إن الشيء الذي لا نهاية لصغره أهلك ولدي من خلال مشيئة الذي لا نهاية لكِبَره! ونحن؟ ما نحن إذن؟ ما نحن؟"

وأقبلت أمّ المرأة في تلك اللحظة وولجت الغرفة ومعها كفن الصبيّ وكانت قد سمعت كلمات الكاهن، وصراخ ابنتها، ورمت بالكفن إلى الأرض، وأخذت يد ابنتها بيدها، وقالت: "نحن يا ابنتي الشيء الذي لا نهاية لصغره، ولا نهاية لكبره، معًا. نحن الطريق بين الاثنين."

الحوت والفراشة

وجد رجل وامرأة نفسيهما ذات مساء، معًا في عربة مسافرين، وكانا قد التقيا من قبل...

كان الرجل شاعراً، وفيما هو جالس بجانب المرأة، قصد إلى تسليتها بقصص ابتدع بعضها، وسمع بعضها الآخر.

ولكن المرأة غفت بينما كان يسرد عليها قصصه. وعثرت العربة فجأة وأفاقت المرأة، وقالت: "أنا معجبة بتفسيرك لقصة يونس والحوت."

قال الشاعر: "غير أني كنت أقصّ عليك يا سيدتي قصة أنا وضعتها، حول فراشة ووردة بيضاء، فكيف انتقلت واحدتهما إلى الأخرى!"

السلم يعدي

قال غصن مزهر لجاره: "هذا يوم تافه، أجوف." فأجابه الغصن الآخر: "إنّه في الحقيقة أجوف، تافه."

وتعلّق في تلك اللحظة عصفور على أحد الغصنين، وجاء عصفور آخر وقف بجانبه.

وترنّم أحد العصفورين وقال: "هجرتني رفيقتي."

وصاح العصفور الآخر: "ورفيقتي أيضًا ذهبت ولن تعود. فأي شيء يهمني من ذلك؟"

وراح العصفوران يتلاحيان ويتوجّه كل منهما بالتوبيخ إلى الآخر، ثم ما لبثا أن تنازعا، وأثارا ضجة كبيرةً في الجوّ.

وانقضّ فجأة من السماء عصفوران آخران، وارتميا بهدوء إلى جانب زميليهما المتشاجرين. وساد الهدوء والسلم.

ثم طار الأربعة معًا زوجين، زوجين!

وقال الغصن الأول لجاره: "أحدث قدوم العصافير ضوضاء كبيرة." وأجابه الغصن الآخر: "سمّ ذلك ما شئت. الآن سلم وهدوء. وإذا كانت الطبقة العليا من الجوّ في سلام، فإنّه يبدو لي أن أولئك الذين يقيمون في الطبقة الدنيا، يحيون في سلام أيضًا. أتريد أن لا تتمايل في الريح أكثر مما تفعل، كي تظلّ بعيدًا عنّي؟"

قال الغصن الآخر: "إيه! ربما أفعل ما تشاء من أجل السلم، لحظة وينتهي الربيع."

ثم مال مع الريح بقوّة ليعانقها...

الظل

قال العشب في يوم من أيام حزيران، لظلّ دوحة كبيرة: "أنت لا تني تتنقّل يمنة ويسرة أغلب الأحيان. إنّك لتزعجني عما أنا فيه من هدوء وراحة بال."

أجاب الظلّ قائلاً: "لست أنا الذي يتنقّل! انظر إلى السماء، إلى الأعالي. هنالك شجرة تتقلّب في الريح شرقًا وغربًا، بين الشمس والأرض."

وتطلّع العشب إلى العلاء، وشاهد الدوحة لأول مرة، وقال في سرّه: "ها إن هنالك عشبًا أكبر مني بكثير!"

وران عليه الصمت...

سبعون

قال الشاعر الشاب للأميرة: "أنا أحبك." أجابت الأميرة: "وأنا أيضًا أحبك يا ولدي!"

ردّ الشاب: "ولكني لست ولدكِ. أنا رجل وإني لأحبّكِ."

قالت: "أنا أمّ البنين والبنات، وهؤلاء هم آباء وأمّهات للبنين من بعدهم والبنات. وإن أحد أولاد أولادي أكبر منك سنًا."

وقال الشاعر الشاب: "ولكني أحبك."

ولم يمض على هذا الحوار زمن طويل حتى ماتت الأميرة، ولكنها في اللحظة التي تلقت بها الأرض آخر أنفاسها، قالت في سرّها: "يا حبيبي! يا ولدي الحبيب! يا شاعري الشاب. ربما كان لنا أن نلتقي بعدُ مرة ثانية. ولكني لن أكون عندئذٍ في السبعين."

العثور على الله

كان رجلان يمشيان مرة في الوادي، وأشار أحدهما بإصبعه ناحية الجبل، وقال: "هل ترى تلك الصومعة؟ هناك يقيم رجل طلّق الدنيا منذ زمنٍ طويل. إنّه لا يبحث عن شيء، ولا يريد شيئًا سوى الله، على أديم هذه الأرض."

قال الرجل الآخر: "إنّه لن يجد الله حتى يهجر صومعته، وعزلته، ونسكه، ويعود إلى العالم، يشاركنا في أفراحنا وأتراحنا، ويرقص مع الراقصين في ولائم الأعراس، ويبكي مع الباكين حول أجداث الموتى."

واقتنع الرجل في سريرته بصحة هذا الكلام، ولكنه أجاب، على الرغم من اقتناعه: "أنا أوافق على كل ما تقول، غير أني أعتقد أن الناسك إنسان طيب. ألا يمكن أن يكون من الأفضل أن يعتزل إنسان طيّب فيخدم بعزلته أكثر مما يفعل هؤلاء الرجال بطيبتهم الظاهرة؟"

النهر

التقى جدولان صغيران في وادي قاديشا حيث يتدفق النهر العظيم، وراح كلّ منهما يتحدّث إلى الآخر.

قال أحد الجدولين: "كيف أتيت يا صديقي، وكيف كانت طريقك؟"

أجاب الآخر: "كانت طريقي أكثر الطُرق عراقيل ووعورة، فقد كسر دولاب المطحنة، والمزارع الذي اعتاد قيادتي من القناة إلى زروعه، قضى نحبه. وكان عليّ أن أكافح، وأتسرّب مع قذارة أولئك الذين لا يعملون شيئًا، إلا أن يخبزوا كسلهم في الشمس. ولكن، قل لي كيف كانت طريقك أيها الصديق؟"

أجاب الجدول الآخر، وقال: "كانت طريقي تختلف عن طريقك: لقد نزلت من أعالي الرُبى، وسط الأزهار العاطرة الناضرة، وأشجار الصفصاف المتهدّلة. وكان الرجال والنساء يرشفون مني بأكواب فضيّة، والأطفال الصغار يغمسون على حفافيّ أقدامهم الوردية في مياهي، وكانت ضحكات البشر والإيناس ترتفع موسيقية في الفضاء

من حولي، وكانت هناك أغانٍ عذبة تملأ الجو فرحًا وألقًا. يا لها من مأساةٍ أن لا تكون طريقك هكذا سعيدة!"

وفي تلك اللحظة، تكلم النهر بصوتٍ عالٍ وقال: "تعال! تعال! إنّنا ذاهبون إلى البحر. تعال، تعال، ولا تقل بعد شيئًا. كن الآن معي نحن ذاهبون إلى البحر. تعال إليّ. تعال إليّ. فإنّك تنسى إذ تلجني كلّ جولاتك التائهة، حزينة كانت أم سارّة. تعال وادخل. ادخل، فأنا وأنت سننسى جميع طرقنا عندما نبلغ قلب أبينا البحر."

الصيادان

التقى السرور والحزن، في يوم من أيام نوّار، بجانب إحدى البحيرات، فتبادلا التحية، وجلسا على مقربة من المياه المطمئنة، يتطارحان الأحاديث.

تحدّث السرور عن الجمال الذي يغمر الأرض، وعن الروعة اليوميّة التي تفعم الحياة في الغابة، وبين الهضاب، والأغاني التي تُسمع في الفجر والأصيل.

وتكلّم الحزن، ووافق على كل ما قاله السرور، لأن الحزن كان يدرك سحر الساعة والجمال المنبعث فيها. والحزن بليغ حين يخوض في حديث نوّار وسط الحقول وفوق الهضاب.

وتحدّث الحزن والسرور طويلاً، وكان الوفاق بينهما تامًا حول جميع الأشياء التي يعرفانها.

ثم مرّ بهما صيّادان على الضفة الأخرى من البحيرة. وفيما هما ينظران إليهما عبر الماء، قال أحدهما: "إني لأعجب من عسى هذان الشخصان أن يكونا؟" وقال الآخر: "قلت: اثنان؟ أنا لا أرى إلا واحدًا."

قال الصياد الأول: "ولكن هناك اثنان." وردّ الثاني قائلاً: "ليس هناك إلا شخص واحد أستطيع أن أتبيّنه، وانعكاس صورته في البحيرة واحد أيضًا."

قال الصيّاد الأول: "لا! هناك اثنان. وانعكاس الصورة في الماء الهادئ، إنما هو لشخصين أيضًا."

ولكن الرجل الثاني قال ثانية: "أرى واحدًا بمفرده." وقال الآخر للمرة الثانية أيضًا: "ولكني أرى اثنين بوضوح."

ولا يزال أحد الصيادَين يقول حتى اليوم إن الآخر رأى شخصًا مضاعفًا، بينما الآخر يقول: "صديقي أعمى على نحوٍ ما."

التائه الآخر

لقيت ذات مرة رجلاً آخر يتسكّع على الطرق. وكان أيضًا على بعض الجنون. فراح يكلمني هكذا: "أنا تائه. ويبدو أغلب الأحيان أني أجوب الأرض مع الأفّاقين. ومذ كان رأسي أبعدَ بسبعين ذراعًا عن الأرض من رؤوسهم، فإنّه يبدع أفكارًا أسمى وأكثر انطلاقًا من أفكارهم.

"غير أني في الحقيقة لا أسير مع الناس، بل فوقهم، وكلّ ما يستطيعون أن يروه مني، إنما هو آثار أقدامي في حقولهم المنفتحة.

"وكثيرًا ما سمعتهم يتجادلون ويتعارضون حول شكل هاتيك الآثار لأقدامي وحجمها، إذ كان هنالك من يقول: إنها آثار تنّين طاف الأرض في الماضي السحيق، وآخرون قالوا: لا! هذه هي الأماكن التي هبطت عليها النيازك من أفلاك الكواكب القصيّة.

"ولكن أنت يا صديقي، تعرف أتمّ المعرفة أن هذه ليست شيئًا سوى آثار أقدام لتائه..."

المحتويات

آلهة الأرض

جبران خليل جبران

ترجمة

أنطونيوس بشير

دار البستاني للنشر والتوزيع
تأسست عام ١٩٠٠

آلهة الأرض

وعندما حلّت ليلة العصر الثاني عشر، وابتلع الصمت، الذي هو مدّ بحر الليل، جميع التلال،

ظهر الآلهة الثلاثة، المولودون في الأرض، وأسياد الحياة، على الجبال. فتراكضت الأنهار إلى أقدامهم،

وغمرت أمواج الضباب صدورهم،

وارتفعت رؤوسهم بجلال فوق العالم.

ثم تكلموا، فتموجّت أصواتهم، كالرعد البعيد، فوق السهول.

الإله الأول:

إن الريح تهبّ شرقًا،

فأريد أن أحوّل وجهي نحو الجنوب،

لأن الريح تملأ مشامّي برائحة الأشياء الميتة.

الإله الثاني:

هذه رائحة الأجسام المحترقة، وهي لذيذة وسخيّة.

وأنا أودّ أن أتنشّقها.

الإله الأول:

هي رائحة الميتوتة المحترقة على لهيبها الضئيل.

وهي تملأ دقائق الهواء بوفرة،

فتزعج حواسي كما يزعجها الهواء الفاسد في الهاوية.

ولذلك أريد أن أحوّل وجهي إلى الشمال الذي لا رائحة فيه.

الإله الثاني:

إنها العبير الملتهب للحياة المثمرة.

وهي ما أود أن أتنشّقه الآن وفي كل أوان.

إنما تعيش الآلهة على التضحية،

وتبرّد غلّة عطشها بالدم،

وتسكّن قلوبها بالنفوس الفتيّة،

وتشدّد عزائمها بالتأوّهات الدائمة التي تصعّدها أرواح القاطنين في قلب الموت، وعروشها مبنية على رماد الأجيال.

الإله الأول:

قد سئمتْ روحي كل ما هو كائن،

فأنا لن أمدّ يدًا لأخلق عالمًا،

ولا لأمحو عالمًا من الوجود.

إنّني ما كنت لأعيش لو أنّني قادر أن أموت،

لأن ثقل الأعصر كلها على كتفي،

وهدير البحر الذي لا ينقطع يستنفذ كنوز نومي.

فيا ليت لي أن أخسر المطلب الأول،

فأزول كالشمس الزائلة.

أود لو أستطيع أن أجرّد ألوهيتي من.غايتها،

لأنفخ أنفاس ميتوتتي في الفضاء،

فلا أكون فيما بعد.

يا ليت لي أن أحترق وأمضي من ذاكرة الزمان إلى فراغ الأزمان!

الإله الثالث:

أصغيا يا أخويّ، أصغيا أيها الشقيقان القديمان.

فإن شابًا في ذلك الوادي،

ينشد مكنونات قلبه في أذن الليل.

إن قيثارته من الذهب والأبنوس،

وصوته من الفضة والذهب.

الإله الثاني:

إنّني لست مغرورًا بهذا المقدار لأتمنى أن لا أكون.

فأنا لا أقدر أن أختار إلا أصعب الطرق،

لأتتبع الفصول وأخضد شوكة السنين،

لأزرع البذور وأراقبها تنفذ إلى قلب الأرض،

لأدعو الزهرة من مخبأها وأسلحها بقوة لتحضن حياتها، ثم أعود فأقلعها عندما تضحك العاصفة في الغابة، لأنهض الإنسان من الظلمة السرمديّة.

ولكنني أحفظ لجذوره حنينها إلى الأرض،

لأغرس فيه العطش للحياة، وأجعل الموت حامل أقداحه،

لأعطيه المحبة النامية بالألم، المتسامية بالشوق، المتزايدة بالحنين، والمضمحلة بالعناق الأول،

لأمنطق لياليه بأحلام الأيام العلوية،

وأسكب في أيامه رؤى الليالي المقدسة،

ثم أحكم على أيامه ولياليه بالمماثلة التي لا تتغير،

لأجعل خياله كالنسر على الجبل،

وأفكاره كعواصف البحار،

ثم أعطيه يدًا بطيئة في الحكم،

وقدمًا ثقيلة في التأمل،

لأمنحه مسرّة ليترنم أمامنا، وكآبة ليلتجئ إلينا،

ثم أجعله وضيعًا عندما تصرخ الأرض في مجاعتها طالبة طعامًا،

لأرفع نفسه عالية فوق الجلد،

ليصير قادرًا على مذاقة غدنا،

وأحفظ جسده يتمرّغ بالحمأة،

لكي لا يتناسى ذكر أمسه.

هكذا يليق بنا أن نحكم الإنسان إلى منتهى الزمان،

مقيّدين النسمة التي تبدأ بصراخ أمه،

وتنتهي بنواح أولاده.

الإله الأول:

إن قلبي يحترق عطشًا، بيد أنّني لا أريد أن أشرب دمًا ضعيفًا لجنس ضعيف،

لأن الكأس ملطخة، والعصير الذي فيها مرّ المذاق في فمي.

وأنا مثلك قد عجنت الطين وصنعت منه أشكالاً متنفسة لم تلبث أن سقطت من بين أصابعي إلى الآجام والتلال.

وأنا مثلك قد أنرت الأعماق المظلمة لبداءة الحياة،

وراقبتها تزحف من الكهوف إلى الأعالي الصخرية.

أنا مثلك قد أحضرت الربيع ووضعت جماله،

ليكون غواية تقبض على الشباب وترغمه على الإنتاج والتكاثر.

أنا مثلك قد سرت بالإنسان من مزار إلى مزار،

وحولت مخاوفه الصماء من غير المنظورات إلى إيمان مضطرب بنا من غير أن يرانا أو يعرفنا.

أنا مثلك قد جعلت العاصفة الهوجاء على رأسه لينحني أمامنا.

وزعزعت الأرض تحت قدميه حتى يصرخ إلينا.

ومثلك أثرت الأوقيانوس البربري فطغى على عش جزيرته،

حتى مات في توسله إلينا.

كل هذا فعلته، وأكثر منه.

وكل ما فعلته فارغ باطل.

باطلة هي اليقظة وفارغ هو النوم،

وثلاث مرات باطل وفارغ هو الحلم.

الإله الثالث:

يا أخوي، إن في غابة الريحان تلك فتاة ترقص للقمر،

وفي شعرها ألف نجمة من الندى،

وحول قدميها ألف جناح.

الإله الثاني:

إنّنا قد غرسنا الإنسان، كرمتنا.

وفلحنا الأرض في الضباب الأرجواني للفجر الأول،

وراقبنا الأغصان النحيلة نامية،

وغذينا الأوراق الفتية على مر الأيام والسنين التي لم تعرف الفصول،

وحصّنّا البراعم ضد العناصر الغضوب،

وحرسنا الزهرة من اعتداء الأرواح المظلمة.

والآن، وقد أخرجتْ كرمتُنا عنبها،

فأنتم لا تحملونه إلى المعصرة لتملأوا الأقداح.

فأيّة أيدٍ أقدر من أيديكم ستجمع الثمر؟

وأي مطلب أنبل من عطشكم ينتظر الخمرة؟

فالإنسان طعام للآلهة.

ومجد الإنسان يبتدئ عندما تمتصّ شفاه الآلهة المقدسة نسمته الهائمة على غير هدى.

كل ما هو بشري لا قيمة له إذا ظلّ بشريًا.

إن طهارة الأطفال، ووجد الشباب اللذيذ،

وهوى الرجولة العزوم، وحكمة الشيخوخة الناضجة،

إن مجد الملوك، ونصر المحاربين،

وشهوة الشعراء، وشرف الحاكمين والقديسين،

كل هذه، وكل ما تحمله في ثناياها، هو خبز الآلهة.

وهي لن تكون إلا خبزًا بغير بركة إذا لم ترفعها الآلهة إلى أفواهها.

وكما أن حبّة الحنطة الصمّاء تتحوّل إلى أنشودة محبة عندما يبتلعها البلبل، هكذا الإنسان إذا كان خبزًا للآلهة يتذوّق الألوهية.

الإله الأول:

نعم، إن الإنسان هو خبز الآلهة!

وكل ما هو من الإنسان سيأتي إلى مائدة الآلهة الخالدة!

آلام الحمل، وعذاب الولادة،

صراخ الأطفال الذي يشقّ كبد الليل،

وغمّ المرأة وهي تصارع النوم الذي تتوق إليه لتسكب الحياة الذاوية من ثدييها.

الأنفاس الملتهبة الخارجة من صدور الشباب المتقطعة، والعبرات المثقلة بأحمال الأهواء التي لم تفتح خزائنها بعد.

جباه الرجولة القاطرة عرقًا وهي تحرث الأرض الجدباء، وتحسرات الشيخوخة الذابلة عندما تدعو الحياة - ضد إرادة الحياة - إلى القبر.

تأملوا، هذا هو الإنسان!

مخلوق يلده الجوع فيصير طعامًا للآلهة الجائعة،

وكرمة تدبّ في تراب الأرض تحت أقدام الموت الذي لا يموت.

زهرة تزهر في ليالي الأشباح الشريرة،

وعنبٌ لا ينضج إلا في أيام الدموع والرعب والعار.

وأنتم على رغم هذا كله تطلبون إليّ أن آكل وأشرب،

وترغبون إليّ أن أجلس بين الوجوه المكفّنة،

وأستقي حياتي من الشفاه الصخرية،

وأقتبل خلودي من الأيدي اليابسة!

الإله الثالث:

يا أخويّ، أيها الأخوان الراعبان،

إن الشاب يغني في أعماق الوادي،

ولكن أنشودته تتصاعد إلى أعالي الجبال،

وهو يهزّ الغابة بصوته، ويشقّ كبد السماء،

ويبدّد أحلام الأرض.

الإله الثاني:

(يصمّ أذنيه دائمًا)

إن النحلة تطنّ بغلاظة في أذنيك،

والعسل مرّ المذاق في فمك.

إنّني أودّ أن أعزّيك،

ولكن أنّى السبيل إلى ذلك؟

فليس يصغي غير الهاوية عندما تخاطب الآلهة الآلهة،

لأن الهوة الفاصلة بين الآلهة لا تحدّ ولا تقاس،

والفضاء صامت لا ريح فيه.

ومع كل هذا أريد أن أعزّيك،

أريد أن أجعل دائرتك المتلبّدة بالغيوم نقية صافية.

ومع أنّنا متساويان بالقوة والفهم،

فإنّني أريد أن أخلص لك النصح.

عندما خرجت الأرض من الفضاء، ورأينا نحن، أبناء البدء، أحدنا الآخر في النور الذي لا عيب فيه، حينئذ أصعدنا الصوت الخفي، المرتعش، الأول، الذي أنعش مجاري الهواء والماء.

ثم مشينا، جنبًا إلى جنب، على سطح العالم الفتيّ الشيخ، ومن صدى خطواتنا البطيئة ولدّ الزمان إلهًا رابعًا، فاقتفى آثار خطواتنا، وأظلم بخياله أفكارنا ورغباتنا، ولم يرّ إلاّ بنور عيوننا.

ثم جاءت الحياة إلى الأرض، وجاءت الروح إلى الحياة، وكانت الروح نغمًا مجنّحًا في الوجود، فحكمنا على الحياة والروح، ولم يقدر أحدٌ غيرنا على معرفة مقاييس السنين، وموازين الأحلام السديميّة في الأعوام، حتى جاء العصر السابع فزففنا في مدّ ظهيرته البحر عروسًا للشمس.

ومن مضجع هذا الزواج المقدّس أخرجنا الإنسان، الذي على رغم ضعفه وسقمه، ما برح يحمل شارة والديه.

وبواسطة الإنسان، الذي يمشي على الأرض وعيناه في النجوم، قد وجدنا طرقًا نافذة إلى أبعد الأصقاع النائية في الأرض، ومن الإنسان، وهو القصبة الوضيعة النامية على المياه المظلمة، قد صنعنا مزمارًا نسكب من قلبه الفارغ صوتنا إلى العالم الصامت في جميع أرجائه. ومن الشمال الذي لا شمس فيه، إلى رمال الجنوب المحترقة بالشمس، ومن أرض عرائس النيل حيث تولد الأيام، إلى جزائر الأخطار حيث تذبح الأيام،

ترى الإنسان الضعيف القلب يتشجّع بغايتنا،

فيغامر بالقيثارة والسيف.

فهو يذيع إرادتنا، ويعلن سيادتنا،

والمجاري التي يطؤها بأقدام محبته هي أنهار سائرة إلى بحر رغباتنا.

فنحن، جالسين إلى أعالينا، نحلم أحلامنا في نوم الإنسان.

إننّا نحثّ أيامه لتفارق وادي الشفق البعيد، وتنشد كمالها على التلال.

وأيدينا تسيّر العواصف التي تجرف العالم،

وتحمل الإنسان من السلامة العقيمة إلى الجهاد المثمر،

ومن ثمت إلى الانتصار.

وفي أعيننا بصيرة نيّرة تحوّل نفس الإنسان إلى لهيب،

وتقوده إلى وحدة رفيعة ونبوّة ثائرة،

ومن ثمت إلى الصلب.

فقد ولد الإنسان للعبودية،

وبالعبودية شرفه ومكافأته.

بالإنسان نطلب علامةً لما بنا،

وبحياته ننشد كمال ذواتنا.

فإذا أخرس ترابُ الأرض قلب الإنسان، فأيّ قلبٍ يستطيع أن يرجّع صدى صوتنا؟

وإذا عميت عيون الإنسان بظلمة الليل، فمن يستطيع أن يرى لمعان مجدنا؟

فماذا يجب أن نفعل بالإنسان وهو ابن قلبنا الأول، وهو صورتنا ومثالنا؟

الإله الثالث:

يا أخويّ، أيها الأخوان القديران،

إن قدمي الراقصة الحسناء قد سكرتا بخمرة الإنشاد،

فأثارتا دقائق الهواء المرتعشة،

وهي كالحمامة تحلق مرتفعة بجناحيها.

الإله الأول:

القبّرة تنادي القبّرة،

ولكن النسر يحوم فوقها،

وهي لا تتوقف لتصغي إلى الإنشاد.

أنت تريد أن تعلن محبة الذات متكملة بعبادة الإنسان، وراضية بعبودية الإنسان.

ولكن محبة ذاتي لا حدّ لها ولا قياس.

فأنا أريد أن أسمو على ما يموت مني في الأرض،

وأتخذ لي عرشًا في السماوات.

فأمنطق الفضاء بذراعيّ، وأحيط بالأفلاك.

. وأريد أن أتّخذ من المجرّة قوسًا،

ومن المذنّبات سهامًا.

وباللانهاية أريد أن أحكم اللانهاية.

أما أنت فلا تريد أن تفعل هذا ولو كان في منالك.

فنسبة الإنسان إلى الإنسان،
هي كنسبة الآلهة إلى الآلهة.
وأنت تريد أن تحمل إلى قلبي التعب،
ذكرى الأدوار المنقضية في الضباب،
في حين أن نفسي نشدت ذاتها بين الجبال،
وعينيّ تعقّبتا صورتهما في المياه الهاجعة،
ولكن عروس أمسي قضت نحبها في أثناء ولادتها،
فالصمت فقط يزور رحمها،
والرمال التي تقذفها الرياح ترضع ثديها،
فيا أمسي، أيها الأمس المائت، يا والد ألوهيتي المقيّدة،
أيّ إله عظيم قبض عليك في طيرانك،
وأرغمك على الولادة في قفص؟
وأية شمس جبارة بعثت حرارتها في بطنك لتلدني؟
إنّني لا أباركك، ولكنني لا ألعنك.
فكما أنّك أثقلت كاهلي بأحمال الحياة،
هكذا أثقلت أنا كاهل الإنسان.
بيد أنّني كنت أقلّ قساوة منك.

فأنا، الخالد، قد جعلت الإنسان ظلاً زائلاً،

أما أنت، المائت، فقد خلقتني خالدًا.

فيا أمسي، أيها الأمس المائت،

هل تعود مع الغد البعيد،

فأقودك إلى المحاكمة؟

وهل تستيقظ مع الفجر الثاني للحياة،

فأمحو ذاكرتك العالقة بالأرض من الأرض؟

أودّ لو أنّك تقوم مع جميع الأموات القدماء،

حتى تختنق الأرض بأثمارها المريرة،

وتنتن جميع البحار بدماء المذبوحين فيها،

ويستنزف الويل فوق الويل كل ما في الأرض من الخصب الذاهب عبثًا.

الإله الثالث:

يا أخويّ، أيها الأخوان القدّيسان،

قد سمعت فتاتنا الأنشودة الساحرة،

وهي تفتش الآن عن المرنّم.

وهي كالخشف، في دهشة مسرّتها،

ترقص فوق الصخور والجداول،

فتديرها في جميع الجهات.

ما أجمل الغبطة التي ترافق المطالب المائتة،

والعين التي تفتحها الغاية النصف المولودة!

ما أحلى الابتسامة المرتجفة لما ستتمتّع به من الغبطة الموعود بها!

أية زهرة تساقطت من السماء،

أي لهيب ارتفع من الجحيم،

فحمل قلب الصمت إلى هذا الفرح والخوف المقطع الأنفاس؟

أي حلم حلمناه على الأعالي،

أيّ فكر بعثناه في الريح،

فأيقظ غفلة الوادي،

وفتح عيني الليل؟

الإله الثاني:

إنّك قد أعطيت النول المقدس.

وأعطيت الفن لحياكة الثياب.

فالنول والفنّ سيكونان لك إلى الأبد،

وسيكون لك معهما الخيط الأسود والنور،

ولك أيضًا الأرجوان والذهب.

وأنت مع كلّ هذا تحوك من نفسك ثوبًا.

قد نسجتْ يداك نفس الإنسان من الهواء الحيّ والنار،

وأنت تريد الآن أن تقطع الخيط،

وتطلق أصابعك الشعرية في الأبدية الخاملة.

الإله الأول:

نعم، نعم، إنّني سأطلق يدي في الأبدية التي لم تسبك في قوالبها بعد، وفي الحقول التي لم تطأها قدمٌ سأطلق قدمي،

فأية مسرة لي في سماع الأناشيد التي طالما سمعها غيري، التي تلتقط ذاكرة الأذن أنغامها قبل أن يسلمها النّفَسُ إلى أمواج الهواء؟

إن قلبي يحنّ إلى ما يستطيع أن يتصوره،

وأنا لن أرسل روحي إلاّ إلى عالم غير المجهول الذي لا تقطن فيه الذاكرة.

بربك، لا تجربني بمجد فارغ،

ولا تطلب لي تعزية بأحلامك أو أحلامي،

لأن كل ما فيّ، وكل ما في الأرض،

وكل ما سيكون في الوجود، لا يقدر أن يستهوي نفسي.

فيا نفسي،

إن وجهك صامت،

وأشباح الليل نائمة في عينيك.

ولكن صمتك راعب،

وأنت راعبة.

الإله الثالث:

يا أخويّ، أيها الأخوان الرصينان،

إن الفتاة قد وجدت المرنّم.

فهي تنظر وجهه المحبوب.

وهي كالنمر تتخطر بخطوات ساحرة،

بين الدوالي والأسيجة المتموجة.

وهو ينظر إليها الآن في وسط أناشيد محبته.

أواه يا أخويّ، أيها الأخوان الغافلان،

هل هنالك إله آخر وقد حاك من آلامه هذا النسيج القرمزيّ والأبيض؟

أي نجم جامح قد أفلت هاربًا؟

ومن يفصل الليل عن النهار بسرّه؟

ومن يضع يده على عالمنا؟

الإله الأول:

يا نفسي، يا نفسي،

أيتها الدائرة المحترقة التي تمنطقني بلهيبها،

كيف أستطيع أن أقود سيرك،

وإلى أيّ فضاء أدير شوقك؟

يا نفسي التي لا رفيق لها،

إنك في مجاعتك تصطادين ذاتك،

وبدموعك تريدين أن تبرّدي عطشك،

لأن الليل لا يجمع نداه في أقداحك،

والنهار لا يحمل إليك أثماره.

يا نفسي، يا نفسي،

أنت تحملين سفينتك إلى الشاطئ وهي مثقلة بأحمال الراغبات.

فمن أين تأتي الرياح لتملأ شراعك،

وأي مدّ فيّاض يقدر أن يحرّر دفّتك؟

إن مرساتك حاضرة وجناحيك على أهبة الطيران،

ولكن السماء صامتة فوقك،

والبحر الهادئ يهزأ بسكونك.

فأي رجاء ثمت لي ولك؟

وأي تقلب في العوالم، أو تبدل في غايات السماء سيطلبك؟

هل تحمل رحم عذراء اللانهاية زرعَ منقذك،

ذلك الذي هو أقدر من أحلامك،

وستنقذك يده من عبوديتك؟

الإله الثاني:

احبس صراخك اللجوج،

وأنفاس قلبك الملتهب،

لأن أذن اللانهاية صماء، وغافلة هي عين السماء.

فنحن كل ما وراء العالم وكل ما فوقه،

وبيننا وبين الأبدية غير المحدودة لا يوجد شيءٌ غير أهوائنا التي لم تتشكل، وغاياتها التي لم تتكمّل.

أنت تستهوي غير المعروف،

وغير المعروف، المرتدي بالضباب المتحرك،

إنما يقطن في أعماق نفسك.

نعم، في أعماق نفسك يضطجع منقذك نائمًا،

وهو يرى في نومه ما لا تراه عيناك المستيقظتان.

هذا هو سرّ كياننا.

فهل تعرض عن جمع حصادك،

لتلقي بذارك بعجلة في أثلام أحلامك؟

وعلامَ تبسط سُحبك في الحقول الخربة،

في حين أن قطيعك يفتش عنك،

وأنت عبثًا تجمع في خيالك؟

فتأنّ، وأنعم نظرك في العالم.

انظر إلى أولاد محبتك غير المفطومين.

إن الأرض هي مسكنك، والأرض هي عرشك،

وفوق أرفع آمال الإنسان تقبض يدك على قسمته،

أنت لا تريد أن تتركه،

وهو المجاهد أن يصل إليك بمسراته وآلامه.

وأنت لا تحوّل عينيك عن الحاجة التي في عينيه.

الإله الأول:

هل يضمّ الفجر قلب الليل إلى صدره؟

أم هل يعبأ البحر بأجسام موتاه؟

كالفجر تنهض نفسي في أعماقي،

عارية غير متحيّرة.

وكالبحر الذي لا يستريح،

يطرح قلبي عنه النفاية الزائلة من الأرض والإنسان.

إنّني لن أعلق بكل من يعلق بي،

ولكنني أريد أن أسمو إلى ذلك المتسامي فوق ما تصل إليه قوتي.

الإله الثالث:

يا أخويّ، تأملا أيها الأخوان،

إن روحين سائرتين إلى النجوم قد اجتمعتا في الجوّ للحساب.

وهما تنظران الواحدة إلى الأخرى بصمت وسكون.

إن المرنم قد انقطع عن الغناء،

ولكن حلقه الذي حرقته الشمس يرتعش بالأناشيد،

ورفيقته الراقصة قد سكن الرقص في أعضائها،

بيد أنه لم ينم.

يا أخويّ، أيها الأخوان الغريبان،

إنّ الليل يشتدّ ادلهمامًا،

والبدر يزداد إشراقًا، وبين الغابة والبحر،

تصرخ المحبة بأعلى الصوت تدعوكما وتدعوني إلى قلبها.

الإله الثاني:

يا لتفاهة الكيان، والنهوض والاحتراق أمام الشمس الملتهبة،

والحياة والمراقبة لليالي الأحياء،

كما تراقبنا عين الجوزاء!

يا لحقارة مجابهة الرياح الأربع برأس مكلل رفيع،

وشفاء أسقام الناس بأنفاسٍ لا مدّ في بحرها!

إن الخيّام جالس يخبط خبط عشواء أمام نوله،

والخزّاف يدير دولابه بعدم اكتراث،

أما نحن، الذين لا ينامون، ويعرفون كل شئ،

فقد أعتقنا من ظلمة الظنّ والتخمين.

فنحن لا نتردّد ولا ننعم الفكر والنظر،

لأنّنا قد سمونا رفعة على جميع الأسئلة القلقة.

فلنعش مطمئنين، ولنطلق طيور أحلامنا من أقفاصها.

وكالأنهار فلنسكب في البحر،

من غير أن تديرنا حافات الصخور،

فإذا بلغنا قلب اللجة، وابتلعتنا أمواجها،

انقطعنا عن المجادلة والتأمل في مصير الغد، إلى الأبد.

الإله الأول:

أفٍّ من ألم هذا التكهّن الذي لا ينقطع،

وهذا السهر السائر بالنهار إلى الشفق،

والذاهب بالليل إلى الفجر!

أفٍّ من هذا المدّ الذي يحملنا إلى الذكرى الدائمة، والنسيان الدائم،

وهذا الزرع المتواصل لبذار الأقدار التي لا تحصد منها غير الآمال،

وهذا الرفع غير المتغير للذات من التراب إلى الضباب،

لتحنّ إلى التراب، ثم تسقط بحنينها إلى التراب،

ثم لا يلبث أن يتضاعف حنينها فتنهض ناشدةً الضباب ثانية!

أفٍّ من هذا القياس الذي بغير أوانه للزمان الذي لا يتغير!

وهل تحتاج نفسي إلى أن تصير بحرًا تزعج مجاريه بعضها بعضًا إلى الأبد،

أو جوًا تتحوّل فيه الرياح المتحاربة إلى زوبعة؟

لو كنت رجلاً، لو كنت عبيرًا أعمى،

لكان في طوقي الصبر على كل هذا.

أو لو كنت الإله الأعلى، الذي يملأ فراغ الإنسان والآلهة، لكنت أكتفي بذاتي.

ولكن أنا وأنت لسنا بشرًا،

ولا نحن بالعليّ الذي فوقنا،

ولكننا أشفاق (جمع شفَق) لا تنقطع عن الظهور والزوال من أفق إلى أفق.

وآلهة، نمسك بالعالم ويمسك العالم بنا.

وقد قضي علينا أن ننفخ بالأبواق،

ولكن الروح النافخة والموسيقى الخارجة من أبواقنا ليست منّا بل تأتي من فوق.

لذلك تراني أرغب في الثورة.

أريد أن أستنزف ما بي حتى أصير فارغًا،

أريد أن أبتعد عن بصيرتك،

أريد أن أختفي من ذاكرة هذا الشاب الصامت، الذي هو أخونا الأصغر، الجالس قريبًا منّا يتأمّل في ذلك الوادي،

ومع أن شفتيه تتحركان، فهو لا ينطق بكلمة.

الإله الثالث:

إنّني أتكلم أيها الأخوان الغافلان،

إنّني أتكلم بالحقيقة،

ولكنكما لا تسمعان غير حديثكما.

أطلب إليكما أن تنظرا مجدكما ومجدي،

بيد أنّكما تتحولان، وتطبقان أجفانكما، وتهزّان عرشيكما.

فيا أيها الحاكمان الراغبان في السيادة على العالم العلوي والعالم السفليّ،

أيها الإلهان الأنانيّان اللذان لا ينقطع أمسهما عن حسد غده،

أيها التّعِبّان من أثقال ذاتكما، المهدّتان حدّة غضبكما بالكلام، والضاربان محاجرنا بالصواعق!

ليست مخاصمتكما سوى صوت القيثارة القديمة،

التي نسيت أصابع القدير نصف الضرب على أوتارها، ذلك الذي الجوزاء عوده والثريا صنوجه،

وهو حتى في هذه الساعة التي تتمتمان وتدمدمان فيها يضرب على عوده وصنوجه،

فألتمس منكما أن تصغيا إلى أنشودته.

انظرا، رجلاً وامرأة،

لهيبًا مع لهيب،

يذوبان وجدًا وهيامًا.

جذور ترضع ثدي الأرض الأرجواني،

وزهور من نار على صدر السماء.

ونحن الثدي الأرجواني،

ونحن السماء الباقية.

إن نفسنا، التي هي نفس الحياة، نفسكما ونفسي،

إنما تقيم الليلة في حلق ملتهب،

مجللة جسم فتاة طاهرة بثوب من الأمواج الثائرة.

إن صولجانكما لن يغير هذه القسمة المعدّة لنا.

وهمومكما هي الطموح بعينه.

لأن هذا جميعه سيمحى من الوجود في هوى الرجل والمرأة.

الإله الثاني:

وما شأن هذه المحبة بين الرجل والمرأة؟

تأمل كيف ترقص الريح الشرقية الرشيقة،

وتنهض الريح الغربيّة مترنّمة بأنشودتها.

انظر إلى محجّتنا المقدسة جالسة على عرشها الآن،

باستسلام روح يغني إلى جسد يرقص.

الإله الأول:

إنّني لن أحول عيني إلى وهم الأرض،

ولن أنظر إلى أولادها في الألم البطيء الذي تسميه محبّة.

وما هي المحبّة،

سوى طبل مقنّع يقود مركبًا طويلاً من الريب اللذيذ، إلى شكل آخر من الألم البطيء؟

إنّني لا أريد أن أنظر إلى هذا الوهم.

وأي شئ تراه هناك،

إلا رجلاً وامرأة في الغابة التي نمّتْ لتصطادهما في فخاخها، وتعلمهما إنكار الذات،

وولادة المخلوقات لغدنا الذي لم يولد بعد؟

الإله الثالث:

أفٍّ من الألم الذي تجلبه المعرفة!

والقناع المظلم الذي وضعه تفحّصنا وتساؤلنا على وجه العالم، والاستنهاد الذي نوجهه في كل ساعة للصبر البشري!

فنحن نضع تحت حجرٍ شكلاً من الشمع،

ثم نقول: إنّه شكل من الطين،

فليجد في الطين آخرته.

ونمسك بأيدينا لهيب أبيض،

ثم نقول في قلوبنا:

إنّه عبير ذواتنا يرجع إلينا،

ونسمة نسمتنا الفالتة منا،

وبعد ذلك نعمد مفتشين في أيدينا وشفاهنا عن المزيد من العبير.

فيا إخوتي، آلهة الأرض،

إنّنا وإن كنّا في أعلى الجبل،

فنحن مازلنا نسير إلى الأرض،

بواسطة الإنسان الراغب في الساعات الذهبية التي في نصيب أخيه الإنسان.

فهل تسلب حكمتنا الجمال من عينيه؟

أم هل تخضع مقاييسنا أهواءه فتحملنا إلى السكون، أو تقودنا إلى مستوى أهوائنا؟

ماذا تقدر أن تصنع جيوش أفكاركم،

حيث تجتمع المحبة بجيوشها الجرارة؟

ألا أن الذين غلبتهم المحبة،

وسارت بمواكبها فوق أجسادهم من البحر إلى الجبل،

ومن الجبل إلى البحر،

يقفون الآن، وفي كل أوان، متعانقين بحياء ووقار.

باجتماع أوراق زهور محبتهم يتنشقون عبير الحياة المقدس،

وباتحاد نفوسهم يجدون نفس الحياة،

وعلى أجفانهم ترتسم صلاة مرتفعة إلينا.

المحبة هي ليلٌ منحنٍ بوقار تحت خيمة مقدسة،

وسماء قد تحولت إلى غابة،

بل هي جميع النجوم قد تحولت إلى حباحب.

نحن بالحقيقة كل ما وراء العالم وكل ما فوقه.

ولكن المحبة أبعد من أن تصل إليها أسئلتنا،

وأسمى من أن تبلغ إليها أنشودتنا.

الإله الثاني:

أتطلب دائرة بعيدة،

ولا تهتم بهذا الكوكب الذي غرست فيه عزيمتك؟

ليس في الفضاء مركز إلا حيث نزف النفس إلى النفس،

ويكون الجمال شاهدًا وكاهنًا.

فتأمّل وانظر الجمال مبعثرًا حول أقدامنا.

تأمّل جيدًا كيف يملأ الجمال أيدينا لينزل العار بشفاهنا.

إن الأبعد هو الأقرب.

وحيث يكون الجمال يكون كل شيء.

أواه أيها الأخ الحالم الرفيع!

ارجع إلينا من عهد أرض الكآبة القاتمة.

حرّر قدميك من اللاّ مكان واللاّ زمان.

واقطن معنا في هذه الطمأنينة الآمنة،

التي ابتنتها يداك وأيدينا حجرًا فوق حجر.

انزع عنك ثوب خفقان قلبك،

وكن رفيقًا لنا في السيادة على هذه الأرض الفتية، الحارّة بجلال خُضرتها.

الإله الأول:

أيها المذبح الخالد!

هل تريد بالحقيقة إلهًا لضحيتك في هذه الليلة؟

إذن فأنا قادم، وبقدومي أقرّب محبّتي وألمي.

هنالك تقف الراقصة، التي نُحتت من شوقنا القديم.

والمرنّم يصيح بأناشيدي في أمواج الريح.

وفي ذلك الرقص، وفي ذلك الإنشاد،

يموت إله قدير في أعماقي.

إن إله قلبي القاطن وراء ضلوع بشريتي ينادي إله قلبي المقيم في الهواء.

والهاوية البشرية التي طالما عطلت عليّ راحتي تصرخ إلى الألوهية.

والجمال الذي نشدناه منذ البدء يصرخ إلى الألوهية.

وفي إصغائي قد قست هذا الصراخ.

وها أنا ألقي سلاحي.

فالجمال طريق يؤدي إلى الذات المقتولة بيد ذاتها.

فاضرب أوتارك.

إنّني مستعدّ للسير على الطريق.

فهي تمتدّ إلى فجر آخر.

الإله الثالث:

قد انتصرت المحبة!

سواء أكانت المحبة بياضًا ناصعًا أو خضرة زاهية بجانب بحيرة، أو كانت جلالاً وفخارًا في القباب الرفيعة، أو كانت في بستان حافل بالناس، أو في صحراء لم تطأها قدم الإنسان،

فالمحبة هي ربنا ومعلّمنا في كل حال.

فهي ليست بالشهوة الزائدة في الجسد،

ولا هي فُتات الرغبة المتساقط من مصارعة الرغبة للذات.

كلاّ، ولا هي بالجسد الحامل سلاحه على الروح،

لأن المحبة لا تعرف الثورة،

ولكنها تهجر طريق الأقدار القديمة لتسير إلى الغابة المقدسة،

لترقص وتترنّم بأناشيد أسرارها في آذان الأبدية.

المحبة شباب قد تحطّمت قيوده،

ورجولة قد تحررت من عناء الأرض،

وأنوثة حارة بلهيب مقدس، مشرقة بنور سماء أبهى من سمائنا.

المحبة ضحك بعيد في أعماق الروح.

المحبة حملة قديرة تسير بك إلى يقظتك.

المحبة فجر جديد على الأرض،

ويوم لم تصل إليه لا عينك ولا عيني،

ولكن المحبة قد وصلت إلى قدس أقداسه بقلبها الأعظم.

يا أخويّ، يا أخويّ،

إن العروس قادمة من قلب الفجر،

لتلاقي عروسها القادم من الغروب.

وسيكون عرسٌ في الوادي،

ويومٌ أعظم من أن تدوّن حوادثه.

الإله الثاني:

هكذا كان منذُ أطلق الصباحُ الأولُ السهول إلى التلال والأودية،

وهكذا سيكون إلى بعد المساء الأخير.

إن جذورنا قد أنبتت الأغصان الراقصة في الوادي،

ونحن أزهار عبير الأنشودة المرتفعة إلى الأعالي.

فالخالد والمائت نهران توأمان يناديان البحر بغير انقطاع.

وليس بين النداء والنداء فراغ قط، إلا في الأذن.

فالزمان يزيد إصغاءنا ثقة،

ويضيف إلى رغباته.

ولا يخرس الصوت في المائت غير المرتاب.

أما نحن فقد تسامينا على الشكوك.

فالإنسان هو ابن قلبنا الأصغر.

الإنسان إله يرتفع إلى ألوهيته ببطء شديد،

وبين مسرته وألمه ننام ونحلم أحلامنا.

الإله الأول:

دع المرنّم يترنم، والراقصة تحرّك قدميها.

ودعني أطمئن هنيهة.

إن نفسي تريد أن تستريح الليلة.

فقد يغلبني النوم،

وفي نومي أرى عالمًا أكثر نورًا من هذا العالم،

فتأتي مخلوقات أبهى من مخلوقاتنا فتسترق طريقها إلى فكري.

الإله الثالث:

إنّني أنهض الآن فأجرّد نفسي من حدود الزمان والمكان،

وأرقص في ذلك الحقل الذي لم تطأه قدما إنسان،

وستتحرك قدما الراقصة مع قدمي،

وسأترنّم في ذلك الملإ الأعلى،

وسيختلج صوت بشري مع صوتي.

سنعبر إلى الشفق البعيد،

فقد نستيقظ في فجر عالم آخر.

ولكن المحبة باقية،

ولن تمحى آثار أصابعها.

إن الكور المقدس متأجج بالنار،

وكل شعلة تصعد منه هي شمس محترقة.

فالأجدر بنا، والأحكم لمصلحتنا،

أن نفتش عن زاوية صغيرة فننام في ألوهيتنا الأرضية،

تاركين أمر قيادتنا إلى اليوم المقبل، إلى المحبة البشرية الضعيفة.

بين يديك عزيزي القارئ ، كتاب يضم بين ضفتيه عملين من أجمل وأشهر ما أبدعه جبران خليل جبران وهما: "التائه" و"آلهة الأرض". يعتبر "التائه" الذي نشر لأول مرة عام ١٩٣٢ أي بعد وفاة المؤلف، أوسع مجموعة أمثال لجبران، ففي الواحد والخمسين مثلاً والمقدمة، يستكمل المؤلف ملامح من "المجنون" (١٩١٨) و"السابق" (١٩٢٠). أما "آلهة الأرض" الذي نشر لأول مرة عام ١٩٣١، فيعتبر من أعظم إبداعات جبران تخيلاً ورمزية.

إن جميع كتابات جبران تدعو إلى التفكير العميق.
فإن كنت تخاف أن تفكر، فالأجدر بك ألا تقرأ جبران.



www.boustanys.com



دار البستاني للنشر والتوزيع
تأسست عام ١٩٠٠